موجب صفر

سعيد الدويك

اسم الكتاب : موجب صفر

اسم الكاتب : سعيد الدويك

رقم الإيداع : ٢٠١٦/٣٤٣٠

الترقيم الدولي : ٩٧٨٩٧٧٦٥٢٧٥٧٧

الطبعة الأولى : ٢٠١٦

مراجعة لغوية : كمال يماني

إخراج : زحمة كتاب

غلاف الديوان : سعيد دويك

صادر عن : مؤسسة زَحمَة كُتَّاب للثقافة والنشر

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة





www.facebook.com/za7makotab





اهداء



إلى الأستاذ عبد النعيم المغاوري
مدرس التاريخ في الصف الأول الثانوي بمدرسة الشهداء الثانوية ببدواي
المدرس كما يجب أن يكون
أتمنى أن يصلك إهدائي هذا
وإلا..
فليصلك دعائي بالرحمة والمغفرة

تدريجيًّا بدأت أحاول التأقلم .. رويدًا رويدًا ألملمُ شتات عقلي .. أحاول ألا أجزع من الصدمة! أتحسس بجواري علَّني أجد ما أبحث عنه.. وما زالت عيناي مغمضة.

أفتح الكيس بحذر.. أضع يدي بداخله، وأخرج موبايلي وأضغط زر الطاقة.. تمر الثواني ثقيلة إلى أن أسمع موسيقى بدء التشغيل.

ها أنا أفتح عيني، حواسي كلها اختطفتْها شاشةُ الموبايل، تسمَّرتُ لا ألتفت يمينًا أو يسارًا، أنهض من رقدتي .. أتحسس طريقي في رفق بالغٍ، لأقرب جدار أسند ظهري عليه.

ها هي إشارة النت قوية .. أفتح رسائلي وأبعث إليها رسالة.. ثوانٍ قبل أن يأتيني الرد؛ وهنا.. أضع محتويات الكيس في فمي؛ لأكمل معها حديثي وعلي وجهي ابتسامة.

* * *

الفصل الأول

-أنا أريد الطلاق!
قالتها بدون مقدمات، قالتها دفعة واحدة في وجهي وكأنها تخشي إن انتظرت قليلًا؛ ربما لن تستطيع قولها مرة أخرى.
عجيب حقًا تأثير فعل الكلمات!
بضعة حروف قليلة قد تفعل بالإنسان مالا يفعله نَصْلُ سكينٍ حاد.
فعندما تقول لإنسان: إني أحبك. بضعة حروف، ولكنها قد تغير من حياته.
أو عندما تقول لرجل: لقد رأيت زوجتك تخونك!
انظر إلى تأثير حروفك عليه، وإن لم يكن كلامك صحيحًا، وإن كنتَ معهودًا بالكذب، ولكنك قد تركتَ فيه شيئًا لن ينمحي.. لا يعي البعض تأثيرَ حروفهم.
يُطْلِقونها كأنها مدفعٌ محمولٌ على دبابة حربية، يُلقون بقذيفتهم في وجهك غير مبالين بآثارها السلبية، وبعض الحروف كزهور الياسمين؛ تعطيك جرعة جديدة للحياة.
قالت كلمتها، وانتظرتْ ردَّ فعلي..
ولدهشتها تبسمتُ، لا أدري لماذا؟ ولكن لم يكن لحروفها على أي تأثير!
هل لأنني كنت أتوقع تلك الجملة من فترة؟
أم لأنني ما عادت الأشياء تدهشني مهما كانت؟
أو لأثبت لنفسي أن الأمر لا يعنيني
لا أدري.. إلا أنني تبسمت..
نهضتُ من على طاولة العشاء الطويلة دون أن أُكمل عشائي، العشاء الأخير الذي أعدَّتْه (نورا) زوجتي لي.
كانت حريصة أن تعد لي أنواعًا كثيرة من الطعام.

هي وللحق كانت طباخة ماهرة في أعمال البيت، لا يضاهيها أحد.
ولكن...
أمسكتُ كوب الشاي باللبن، وذهبت إلى التلفاز لأفتحَه على قناة الأفلام الأجنبية قبل أن ألتَفِت إليها قائلًا:
أتريدين تبديل القناة؟
كانت تلك إحدى اختلافاتنا الصغيرة، هي لا تحتمل أن تشاهد تلك الأفلام الأجنبية، هي تعشق أعمال السبكي الفنية!
اختلاف صغير.. من بعض تلك الاختلافات بيننا، مجرد أشياء تافهة.
ولكن، تلك الأشياء الصغيرة تراكمت بيننا لتصبح سدًّا يحجز بيني وبينها.
أنْ تعشق أنت صفار البيض، وزوجتك تحب بياضه؛ هذا تكاملًا، أمَّا أن تكون لا تستطيع النوم إلا في الظلام، وزوجتك تريد لمبةً مضاءة، أو أن تكون تعشق المكوث في البيت، وزوجتك تريد الخروج.. تلكم الأحجار الصغيرة التي تبني شيئًا فشيئًا جدارًا بينكما.
وموضوع الإنجاب هو مَن عَجَّل بتلك النهاية.
أنا لا أنجب!!
هي لن تصبح أُمًّا مادامت معي..
هي ابنة عمي الجميلة بمقدار ٣ على مقياس ريختر، زلزال لا تشعر به، ولا تستطيع أن تنكر وجوده.
فهي امرأة لا تحرك فيك شيئًا، ولكن تبقى جميلة.
ربما لا تحركني لأننا تربينا سويًا وصُنِعَتْ على عيني .. رأيتها وهي تحبو، وحملتها وهي تبكي، وفَعَلَتْها على ملابسي، ورأيت مخاطها وهي تلتهمه..

أشعر الآن بتأففكم!
فما بالكم وقد عايَشْتُ كلَّ تلك الأحداث!
أعلمُ أن كل النساء كانوا كذلك..
كانوا أطفالا يمرحون مع كلاب الشوارع والقطط الضالة..
وعندما تذهب لخطبتها؛ يشعرك والدها وكأنها قد أتتْ من الشانزلزيه بفرنسا حالًا؛ لتراها ثم تعود.
نعم، كلهن كانوا أطفالا، لكني عايَشْتُ طفلتي يومًا بيوم، في بيت عمي.. عمي الذي رباني بعد موت والدي ووالدتي تباعًا، وتركاني طفلًا في بيته، ليرعاني مع أولاده، أخذني.. وأخذ بيتي وأرضي، وعندما أعادهم إليَّ مرة أخرى؛ أعاد معهم فائدة ربوية.. وهي ابنة عمي.
ولأن الله يمحق الربا؛ فكانت تلك النهاية متوقعة.
فأنا هذا الشاب الذي ما إن تعامل معه أحدٌ من مدرسيه إلا ووصفه بالعبقري، هذا الذي كان مُتوقَّعًا له مستقبلًا باهرًا.
إلا أنه -وبمباركة عَمِّهِ- فضّل كلية التربية، قِسم الرياضيات؛ ليصبح مُدرسًا؛ لأنها الكلية الوحيدة الذي يُوظِّف خريجوها، ومادة الرياضيات هي عشقه الذي لا ينافسها شيء آخر في قلبه.
نظرتُ إليها.. إلى ابنة عمه، امرأة عادية بكل اهتماماتها وعاداتها، هي المقابل على اعتناء عمه به، ويكفي أن تكون الزيجة سببًا لتشعر بثقلها على عاتقيك.
كانت تحرك رأسها بالنفي على سؤالي عن رغبتها في تغيير القناة.
كم أصبحت نظرتها ذابلة!
هي أيضًا خاسرة في هذا الاتفاق، أنا بالنسبة إليها رجل مختلف، وربما لا أُطاق، عادات غريبة،

وأيضًا.. تربى معها. ربما كانت تراه أخاها الأكبر هي الأخرى.
مسكينةٌ يا ابنة عمي..
فلتنامي الليلة بحضني لآخر مرة، وفي الصباح أنت حرة..
هزت رأسها بالإيجاب وهي تنظر إليَّ جيدًا لتحاول أن تَسبر أغواري، وتقرأ شعوري الآن، لكنها فشلت كعادتها، وظهر التوتر واضحًا على ملامحها عندما نهضتُ من مكاني في بُطءٍ ووضعتُ الكوب الفارغ من يدي على المنضدة، واقتربت منها في هدوء ومسحت خدها الأيسر بظهر أصابع يدي اليمنى وانحنيتُ لأُقَبِّلَ رأسها وأقول لها في هدوء:
أم أقولك لك.. أنت طالق!

***

الفصل الثاني

رجل مطلّق منذ عام ونصف، ولا أخ ولا ولد، ولا زوجة تتحكم فيه كمأمور سجن، أين سيكون مصيره؟ بالطبع مُلقىً على أحد الكراسي في أحد المقاهي القريبة منه، فلهذا أصبح المقهى جزء أصيل في حياتي اليومية، والمقهى عندي لا علاقة لها بالقهوة .. فأنا لا أستسيغ شرب القهوة مثل كثيرٍ من العميقين على الفيس بوك، ولا أتظاهر بذلك، ولا أكتب على الفيس عن عشقي لصوت فيروز أثناء احتسائي للقهوة ليس لأنه سيصبح كذبًا، ولكنني سأعتبره خيانة لمحبوبي الأول المحشي، وخصوصًا "عُمق" الحَلَّة المحترق.. هذا هو العمق عندي.

جربت أن أطهو لنفسي، وكانت أفشل تجربة في تجارب حياتي.

وكادت الأطباق أن تقتلني نفسيًا، الأطباق المتسخة لا تنتهي، وكأنها تتكاثر، لو لم تفعل النساء غير غسيل الأطباق لكفتها مفخرة.

قررتُ أن أكُفَّ عن محاولات الطهو بالمنزل، فلا تحتاج لعبقري في الرياضيات لتكتشف أنه كي لا تتعب نفسك في غسيل الأطباق عليك ألا تطهو.

اتجهتُ للأكل على المقهى، صباحا تطلب الفول والطعمية، وليلًا الكبدة أو السجق أو الكفتة، وجبتان تكفيان لسَدِّ جوعي، وربما تأتي ثالثة في نهار أحد الأيام إذا شعرت بالجوع.

لا تعنيني نظرات الشفقة من بعضهم، فمع مرور الوقت اعتادوا الأمر، أو أنا أخذتُ مناعة من نظراتهم.

كل ما يضايقني هو يوم الجمعة، فالكل يجلس في بيته بعد الصلاة يأكل مع أسرته، وأنا في القهوة آكل من النوع الذي يكون متاحًا تلك الساعة.

تقتلني الوحدة، لماذا لم أرجُ من ابنة عمي أن تظلَّ بجواري!
كل شهر تقريبًا أستدعي أمَّ بيومي، تلك المرأة التي تأتي إلى بيتي لتنظفه وتطبخ لي المحشي مرةً كل شهر حتى لا أنسى مذاقه.
أنا أدمن شرب الشاي باللبن، لا أعلم مَن صاحب اختراع الشاي باللبن؟ هذا العبقري يستحق جائزة نوبل في المشروبات.
أستطيع أن أعيش بمفردي على كوكب المريخ، بتليفون ذكي، بواي فاي، وشاي باللبن، وبقسماط..
يوميًا أشرب ما يقارب من أربعين كوبًا من الشاي باللبن، حتى إنني أظن عم محسن (صاحب المقهى) قد اشترى بقرة لي خصوصًا ليحلبها ويكفيني لبنها.
يفصلني عن الأربعين بضعة أسابيع، والشيب والصلع بدآ في محاولات كسب المعركة الأخيرة بينهما.
أصبحت من المشاهير على الفيس بوك، يتابعني مئات الآلاف .. وما أن أكتب منشورًا إلا وتنهال عليه الإعجابات والتعليقات.
لا أعلم متى اشتهرت، لكنَّ الموضوع بدأ عندما طارت الصفحات الكبيرة ببعض منشوراتي.. وفجأة.. أصبحت مشهورًا، الكل يطلب ودي .. والكل في انتظار آرائي، دون أن يراني أحد..
مسكين هذا الشعب!
أجلس على المقهى، تلك الطاولات المتهالكة، وعليها هذا المشمع الأصفر، المعلَن عليه أحد أنواع الشاي، هذا المشمع الذي يُعتبر بيتًا آمنًا، وملجأً أخيرًا للذباب.
أجلس يوميًا خارجها في أحد الزوايا، حتى أصبح وكأن هذا الكرسي ملكي، فلا أحد يجلس عليه في غيابي، وهناك في الجهة الأخرى يجلس المعاشات من قريتنا، مجموعة من كبار السن، يلعبون

يوميًا الدومينو على المشاريب، على فترات متباعدة يسقط أحدهم بالموت، أو المرض، تطويه غياهب الزمن ليضاف شخص جديد، مولود جديد، رجل تفرغ أخيرًا للمقهى.. حلم الرجال المخبوء عن عيون زوجاتهم ..

عملية الإحلال والتبديل التي تمر بتلك الطاولة لهي الصورة المصغرة للدنيا.

وطاولة يجلس عليها عادل بيارة.. وأطلقوا عليه (بيارة) لأنه سقط وهو طفل في أحد بيارات الصرف الصحي وأنقذوه قبل أن يغرق.. لكنه صعد ومعه قذارته، فعندما كبر أصبح المورد الحصري لكل شيء مسكر وحرام، من حشيش وبانجو ومواد مخدرة، هو الوكيل الحصري للشيطان في قريتنا.

وبعض طاولات الشباب، ومعظمهم إن لم يكونوا كلهم من طلبتي السابقين فإخوانهم كانوا طلبة عندي.

أما رفيقي في طاولتي: فهو الدسوقي.. لا أدري متى أصبحنا صديقَيْ مقهى، لكنني استيقظت يومًا من شرودي على مقهى؛ لأجد شخصًا قصير الجسد ممتلئَهُ يعاني سوء توزيع في الشعر، فهو أصلع شعر الرأس، غزيره في منطقة الصدر.

أصبح صيقي ومرافقي، فوجئت به صديقي، لكن وجوده بالطبع بمقياس السالب والموجب على خط الأعداد، فهو بالموجب، فأنْ أجلس معه أفضل من أن أظهر وحيدًا تمامًا أمام الناس.

كان منهمكًا في حل الكلمات المتقاطعة كأي موظف مصري أصيل.

وبعض الطاولات التي تتسم بأن أصحابها غير دائمين، يأتون في الغالب عندما تضيق بهم بيوتهم، ولا يحتمل البيت أنفاس الزوج والزوجة معًا، ويصبح لابد من أن يخرج أحدهما ليكمل البيتُ

المسيرةَ، ولأن الطلاق تدمير للأطفال فيلجأ بعض الرجال للمقهى أحيانًا.
وأخيرًا يجلس على الأرض الشيخ صبحي (أهبل القرية)، فلا ملجأ له إلا المقهى، أمامها نهارًا، وبداخلها ليلًا لينام، ولا أحد يعلم من أين أتى، لكنه هنا منذ سنين طوال، فلا أهل، ولا عائلة، ولا وظيفة.
لا عقل.. ما أشبَهَهُ بي! بل ربما هو أفضل حالًا مني، فهو لا ينهكه عقله بأسئلة لا إجابات لها، ولا يشعر بالوحدة، ولا يفهم نظرات الشفقة، أو الاستغراب والدهشة من تصرفاته التي تحيطه مثلما أفهمها أنا من المحيطين بي.
نشرتُ صورته كثيرًا عندي على صفحتي بالفيس بوك؛ أملًا في العثور على أحدٍ يعرفه، وبالرغم من أنني أصبحت مِن أشهر الناس بمصر، وصفحتي يتابعها مئات الآلاف، إلا أنني لم أعثر على أحدٍ من معارفه.
هو أصبح يشاركني في وجباتي، أعمل حسابه معي، وأعطيه وهو جالس على الأرض ما يبقيه حيًّا، فلربما كان سبب دخولي الجنة كمَن سقى كلبًا.
لكن.. لماذا لا أجلسه بجواري وقت الغذاء؟ لا أعلم! أنا محسنٌ ومتصدق لكنني لست ملاكًا،
في النهاية أنا بشرٌ.
ترُى.. لو مات الشيخ صبحي مَن سيحضر جنازته؟

* * *

الفصل الثالث

أكره الجنازات..
منذ طلاقي أصبحت إنسانًا أكره الزحام، أكره الاختلاط كثيرًا بالبشر، أفقد حبي للدنيا وضوضائها، يومًا بعد يوم أذهب إلى المدرسة على ميعاد حصصي، أدخل إلى الفصل لأفرغ ما في جوفي في أذن تلاميذٍ لم يحضروا إلى المدرسة إلا بعدما أرغمهم آباؤهم، ومَن حضر منهم برغبته أتى ليُكفر عن سيئاتنا وسيئات أهلنا أجمعين.
لا أدري كيف يوافق قلب الآباء على إيقاظ أبنائهم فجرًا في تلك الأجواء الباردة ليذهبوا إلى مدارس يعلم الجميع مستوى التعليم بها؟ لو ترك كل والد ابنَه نائمًا لدعا له بالرحمة بعد عشرين عاما وهو يجلس بجواري على المقهى!
لا أتبادل الحديث مع المعلمين إلا مقتضبًا، أصبحت أتجنب البشر، تلك الكائنات الفضولية الثرثارة ما أن يعثر عليك إلا ويستلم أذنك وكأنه احتلها، ويظل يشتكي لك من ظروفه وحياته.. أنا لا أريد أن أسمع أو أحكي، أريد أن أشرح حصتي، ثم أجلس في فناء المدرسة وحدي أراقب هؤلاء الشياطين الصغار، كم يختلفون كثيرًا عن جيلنا.
جيلنا.. كنا نأكل الأستيكة ونمسح المكتوب بأصابعنا، جيلٌ كانت تغذيته حلاوة طحينية وخبز ومربى، بل ربما ربطة جرجير.
أما هؤلاء.. جيل النانو تكنولوجي، أراقبهم من بعيد، كما أصبحت أراقب كل شيء من بعيد، كل يوم تزداد وحدتي .. أتوارى أكثر فأكثر، كل يوم أنسج شرنقة جديدة حولي حتى لا أرى خارجها، ولا يراني أحد.

لكني مجبر على حضور جنازة أُمِّ عم محسن (صاحب المقهى)، فلا يصح أن أجلس معه كل ليلة على المقهى ولا أحضر جنازة أمه، وإلَّا وضع في الشاي باللبن خاصتي أي شيء مقرف.
هو عم محسن، المربع شكلًا، الدائري كرشًا، لا يكفي أن أجلس على المقهى الخاص به، بل لابد أن أذهب إليه لأواسيه، ولو كنت مجبرًا.
ها أنت أيها الوغد الذي يدَّعي الحزنَ علي أمه! كيف وقد كنتَ تتأفف من رائحتها! هي نفسها التي كنتَ لا تطيقها.
أفٍ للأبناء.. يتأففون في إعطاء أمهاتهم كوبًا من الماء، وبعد الموت يشترون لهم كولديرًا !
الآن تبكي أمام الناس؛ ليقال الابن المخلص.. تبًا لك ولريائك.
هل سيصدقونك؟ هل نسيت أن صراخك للمسكينة لم يكن ليصل لكل أهالي القرية فحسب، بل كان صراخك يزعج أمواتنا.
الآن تبكي كطفل فقد أمه! الطفل يبكي فقدان أمه؛ لأنه ليس له غيرها.. أما أنت، فلك أبناؤك أيها المحظوظ.
هم أغبياء مثلك، ولكنهم يملؤون حياتك.. لك أيضًا زوجتك، هي وإن كانت نكدية، لكنها في النهاية.. أنثى.
وفي الظلام.. تتطابق النساء
الآن أخبر إمام المسجد قبل صلاة الجنازة بصوت باك:
إن من له دين في رقبتها، ومن كانت له مظلمة فليعف وليصفح.
وأين ذهبها أيها اللص؟ أين الخاتم الذي كان ينوء بحمله أصبعها؟ هل خلعت الذهب قبل أن تعلن عن الوفاة كي لا تأخذه أي من أخواتك؟

يا لص.. احمل في نعش أمك، انزل تحته، وارفض كل المحاولات الذي تريد أن تريحك قليلًا، لا مانع من بعض العبارات التي تزيد من دورك إقناعًا وإمتاعًا : لقد حملتني عمرها كله، ألا أحملها قليلًا!

قف أمام القبر وانظر إليها وكأنك ستشتاق إليها.. هل لا تريد فراقها؟

الوغد يصرخ مودِّعًا أمه! لما لا تدخل معها قليلًا، وسناتي بعد يومين لأخذك، هذا.. إن تذكرنا!

اللعنة على الرياء!!

فلآخذنَّ نصيبي أنا أيضًا من الرياء.. سأقترب منه كي يراني؛ ليعرف أني تركت كل شيء -ولا شيء- من أجله، ومن أجل معاملة أفضل.. هل تراني أيها الأخرق؟ ركز قليلًا، دعك من كل محاولاتك التمثيلية، سأعطيك الأوسكار لاحقًا، أما الآن.. فلا بأس أن تتذكرني..

الأحمق!

ارتمى في أحضاني.. لست زوجتك أيها العربيد.

وما هذا الشيء الرطب على كتفي؟

مخاط!

اللعنة..

دع قليلًا من مخاطك لباقي القرية.

* * *

كالأم التي تنوي الانصراف مع أبنائها؛ فتحمل أحدَهم فوق كتفها، وآخر على صدرها، وبعضهم يركض خلفها.. كانت الشمس تلملم بقاياها؛ لتغرب بعيدًا عنَّا، ولا يبقى منها إلا بضعة أطفال صغار متأخرين مسافة عن أمهم، وسريعًا ما يدركون بُعْدَهم فيركضون نحو أمهم؛ لتُغَطِّى قريتنا بظلام دامس.
فالأهالي في هذه الأوقات يتأخرون في إنارة بيوتهم حتى لا يجذبوا قطعان الناموس، إلا أن عمّ محسن كان لا يشغله موضوع الناموس، فهو لا يلقي بالًا بجحافل الصراصير التي تحتل المقهى، فهل سيهتم بالناموس؟
كان عم محسن يضع أمامي كوب الشاي باللبن بعد أن مسح الطاولة أمامي بقطعة قماش تركت قذارةً أكثر مما حملت.
عم محسن بعينين حمراوتين، ليس من البكاء على أمه، ولكن من أثر السهر والمخدرات قال: العزاء مقتصر على المقابر، ولم يُغلق مقهاه، وقال: لمْ أغلق أكل عيشي من أجل أمي، ولن أغلقها من أجل أحد من أهلي أو أقاربي حتى لا يغضب مني أحد.. الرجل وضع قانونه الخاص، وطبقه أول ما طبق على نفسه.
كان (عادل بيارة) قد بدأ في تجهيز عدته، فبضاعته في الحقيبة التي على الدراجة البخارية أمامه، ولا يحمل في جيبه إلا النذر القليل حتى إذا جاءت الشرطة يستطيع إلقاء ما في يده دون خسائر كبيرة، ولن يلتفتوا إلى الدراجة البخارية الملقاة بإهمال على جانب السور خلف ظهره.
حينما تلاقت أعيننا أشحت بنظري عنه، وعلى وجهي علامات الامتعاض الواضحة، فلا أجد وُدًّا مع هذا الشاب الذي يدمر أبناءنا.. يغّيب عقول مَن عليهم بناء هذا الوطن مستقبلًا، ولا أدري سر

سكوت الآباء عنه!
لو أن لي ابنًا لخِفْتُ عليه من هذا الشيطان البشري، وكنت آذيته قبل أن يؤذي ولدي، ولا يقولنَّ لي قائل: ربِّ ابنك وأبعده عنه..
كيف آمن على مراهق أمام مغريات الحياة تلك؟
لا أعلم ما شدني لألتفت أقصى يميني على تلك المرأة القادمة، والتي تحمل طفلًا صغيرًا وقد لفته ببطانية صغيرة، أعرفها جيدًا..
إنها ابنة عمي.. أفأنجبتْ طفلًا؟! أتزوجتْ؟!
لمَ لمْ يخبرني أحد؟
كيف لم أعرف بيوم العرس ومَن هذا الذي يجرؤ على إخباري؟ أو الاهتمام حتى بأخباري؟
كيف لم أعلم!
أنجبتِ الطفلَ الذي تتمنينه أخيرًا يا ابنة عمي؟!
لمَ أشعر أنك غير سعيدة! أستطيع قراءة ما بداخلها دون أن تتكلم.
كانت قد أصبحت أمامي تمامًا، لو أسقطنا عمودًا مباشرًا حيث جلوسي على خط سيرها لكان في نقطة مرورها الآن تمامًا، هي الآن.. في أقرب مسافة لي منذ عام ونصف؟
لمَ تحملين طفلك بتلك البطانية التي كنتُ قد أهديتها إليك يومًا؟
أهذا زوجك الذي يسبقك بخطوات؟ لمَ لا ينتظرك هذا الأحمق ليسير بجوارك؟
رجل آخر مع طفلتي الصغيرة التي ربيتها على يدي في بيت عمي، وكيف يمر عام ونصف دون أن أزور بيت عمي؟
كنت أنظر لابنة عمي التي تبتعد رويدًا رويدًا، وأجاهد تلك الدمعة التي تحاول السقوط، وأشيح بوجهي في الجهة الأخرى، كي لا يراها (الدسوقي)، الذي ربَتَ على يدي مواسيًا قائلًا: لا عليك.

الفصل الرابع

الضباب يكسو كل شيء .. لا أستطيع أن أرى كفَّ يدي لو مددتها أمامي.. أجلس وحدي في مكاني المعلوم، على المقهى.. لا أرى أحدًا غيري، فجأة يظهر أمامي (بيارة) ماسكًا سكينًا حادًّا، والشرر يتطاير من عينيه.. أحاول النهوض فأرى عمي يقيدني على مقعدي الجالس عليه،

أخيرًا ظهرت حقيقة عمي!

يريد قتلي ليرثني.. أواه يا عمي.. وأنا كنت أحبك، بل إنني ابنك، وسميت على اسمك؟

أتمنى أن أستطيع فك يدي لأضربك بحذائي، لكنني.. لقد نسيت ارتداء حذائي !كيف خرجت من بيتي دون حذاء؟

(بيارة) ينوي ذبحي، ألن تصورني على الأقل وأنا أُذبح؟ هذا الفيديو سينال مشاهدات كثيرة

ثم.. هل يسمح عم محسن بالدماء أن تُغرق مقهاه؟

هنا ظهرت ابنة عمي بتلك البطانية الصغيرة لتضعها أمامي حتى لا تسقط الدماء على أرضية المقهى.. أصيلة هي ابنة عمي.

كان الدسوقي بعيدًا بين أيدي بعض الشباب منهالين عليه ضربًا بإحدى الطاولات الخشبية، أنا رأيت هذا المشهد في فيلم لأحمد السقا، متى تأتي حورية لأحملها على يدي ويختفي كل الممثلين في لحظة؟

كان صوت الطاولة يصدر أصواتا متلاحقة تزعجني.. اللعنة.. فأنا أريد أن أُذبح في هدوء.

لحظة!

تلك الأصوات هي طرقات على باب بيتي..

أنا أحلم!!

كانت تلك الطرقات تخترق رأسي وتقتل بداخلي كل بقايا النوم، هذا العنيد لن يرحل إلا بطعنة سكين في قلبه، على الأقل يكون هناك قتلًا اليوم.

علامَ كل هذا الإصرار؟

هل قامت القيامة؟

فلتكف أيها المخبول، فأنا لن أتحرك قيد أنملة.

اللعنة.. الطرقات تستمر بإصرار ذباب قريتنا على عدم مفارقتك إنه يتبع معي سياسة النفَس الطويل، وأنا إله الضجر عند قدماء المصريين.

أنظر إلى هاتفي لأجد أن الساعة لم تصل السابعة بعد، أنا لا أستقيظ إلا التاسعة والنصف، أنا أنام بعد الفجر، بعد محاولاتٍ مع أصوات رأسي العالية، التي لا تتركني إلا مغشيًا عليَّ.

أذهب للمدرسة في العاشرة، هم يجعلون كل حصصي في آخر اليوم؛ لأنني لن آتي مبكرًا، وليفعلوا معي ما يشاءون.

مازالت الطَرقات اللعينة.. مَن هذا الذي يجروؤ على إيقاظي؟

حسنًا.. كما تريد أيها المنحوس، سأفتح الباب، وأفتح لك نافذة كبيرة في رأسك.

أجرجر قدماي جرًا لأفتح للشهيد القادم، بعينين ناعستين أبحث عنه لا أجد أحدًا !

-أستاذ عمر: أبي يريدك على وجه السرعة.

أنزل بمستوى رأسي لأستطيع أن أرى هذا الطفل المقرف ابن الدسوقي عطية، صديق المقهى.

أستند على الباب وأنا مغمض العينين، وأراني أمسك الطفل، وأقتلع عينيه، وأخرج قلبه وأقطعه بأسناني، وألحِّفُه في بطانية ابنة عمي.

لكني أبعد تلك الصورة عن وجهي وأنا أفتح عينًا واحدة من الإجهاد، أو لمحاولة بث الرعب في قلب هذا الطفل فيهرب ويتركني لسريري.

* خيرًا، ماذا حدث لوالدك؟ .. هل أكلته السلعوة وأراحتني منه أخيرًا؟

-لقد سُرقت شقتنا يا أستاذ عمر

* حسنًا حسنًا، مبارك لكم!

وتركته قاصدًا سريري كالمنوّم المغناطيسي، ولكن اللزج جاء خلفي ليقول:

-أبي يريدك يا أستاذ عمر

دعك أيها الوغد الصغير من تلك النظرة المستعطفة، فمن أخبرك بأني سوبرمان القادر على حل مشكلتك قد أخطأ، فما أنا إلا مستذئب لا يخرج إلا في مواعيد محددة، اهرب قبل أن أعضك.

نظرت إلى الطفل وأنا أرتمي على سريري:

* أخبر والدك أن يتصل برجال الشرطة، فهم يتقاضون راتبًا من أجل ذلك.

-لقد اتصل بهم والدي، لكنه يريدك أنت

* أي بني: كل رجل في هذه القرية له مشوار واحد عندي، فلو أخذه والدك اليوم؛ فلن أحضر جنازته.

نظر إليَّ الطفل في بلاهة.. لن يذهب هذا الطفل إلا بي.

اللعنة عليك، وعلى أبيك، وعلى عم محسن الذي كان سبب تلك المعرفة المقرفة.

***

الفصل الخامس

كالموتى الأحياء في الأفلام الأمريكية، أمشي نائمًا بجوار الطفل، ومازالت ابتسامة صفراء فاقع لونها مرسومة على وجهه.
أدخل إلى شقة الدسوقي المفتوح بابها، أتوقف عند الباب، أري تلك الشراعة ..كانت عبارة عن برواز خشبي وبداخلها زجاج وخلفها تلك الرسمة الحمقاء التي يتقنها الحدادون، التي لا تعرف هل هي رسمة فرع شجرة؟ أم إنها تعويذة لجلب الشياطين ومصاصي الدماء؟
تلك الشراعة هدفها أن يفتحها مَن بالداخل ليتكلم مع مَن في الخارج دون فتح الباب، وليظل مَن في داخله في مأمن مِن شر مَن في الخارج، مع تلك البراويز الحديدية.. لمَ كل هذا التعقيد عليك اللعنة.
كان زجاج الشراعة مكسورًا تمامًا، ولم يبق منه قطعة واحدة في بروازه الخشبي، دخلت إلى الشقة لأجد رجال الشرطة، والدسوقي، وزوجته المنتقبة، وأطفاله التعساء.
نظر إليَّ أحد رجال الشرطة المرتدي لباسًا مدنيًا في تساؤل! فسارع الدسوقي -وهو يخبط على صدره في فخر-: هذا الأستاذ عمر صديقي العزيز.
لا أدري من أين له هذا الفخر؟
دخلت إلى الشقة، وصاحب اللباس المدني يومئ برأسه في عدم اهتمام، وأنا أنظر إلى زجاج الشراعة المتناثر في كل أرجاء الشقة، وإلى الأجهزة الكهربية المتراكمة، كان التلفاز والحاسوب بجوار الباب، فالسارق لم يجد الوقت الكافي تقريبًا لسرقتهم أيضًا.
ثم دخلت إلى غرفة النوم دون أن أهتمَّ لنظرات زوجته المتحفزة خلف النقاب..

أيتها الغبية.. أنا بالطبع لن أموت لأشاهد ما يخصك، فدعكِ من نظراتك تلك، أنا ذاهب لأرى ما الذي دفع هذا اللص ليبحث بين الملابس؟ وعن ماذا يبحث؟
نظرت إلى الدسوقي متسائلًا: كم سرق منك وأين كان هذا المبلغ؟
قال الدسوقي في لهجة أقرب للبكاء: خمسون ألف جنيهًا.. ثلاث رصَّات، رصتان، كل واحدة منهما عشرون ألف بفئة المئتين جنيه، والأخيرة عشرة آلاف بفئة المئة جنيه.
سألته ساخرًا: ولماذا لم تضع على كل ورقة ختمًا يا حجازي أفندي!
نظر إليَّ الدسوقي ولم يفهم الدُّعابة، ربما هي فعلًا دعابة سمجة في هذه الظروف.
-وأين كانت تلك النقود؟
قال: هنا.
وأشار إلى دولاب الملابس.. حيث ملابس زوجته.
نظرت إليها وأنا أهز كتفي بمعنى: زوجك هو من وضع نقوده هنا، ووضعنا في هذا الموقف..
اقتربت إلى ملابسها، وأنا أنظر إليها وعلى شفتي ترتسم ابتسامة ساخرة من توتر الزوجة الظاهر من فركها في يديها.. ثم توقفت قبل أن أنحني لأرى بعثرة الملابس، ونظرت إلى الضابط بلباسٍ مدني قبل أن أقول له: أعتذر منك لخمس دقائق.
ثم صفقت بيدي قائلًا: فلينتبه لي الجميع.. بعد إذنكم.
وكأنني على المسرح أؤدي دور البطولة قلت: فلتحبسوا أنفاسكم قليلًا ولتتابعوني بتركيز..
أولا: مَن كسر الشراعة لم يكسرها من الخارج، بل كسرها من

الداخل.. خلعها من مُفَصَّلاتها، ووضعها بمكان بعيد عن الجيران، وربما وضع عليها بعض الملابس لكتم الصوت، ثم كسرها، ثم أعاد تركيبها وجاء بالزجاج ونثره هكذا..

وهذا لأنه لو تم كسرها من الخارج لبقي في جوانبها الخشبية بعض الشظايا؛ لأن اللص لن يملك الوقت لتنظيفها كاملةً، هو فقط يريد إدخال يده من الخارج ليطول الترباس ويفتحه، هذا بفرض أن الزوجة تركت الباب مغلقًا بدون غلقه بالمفتاح.. جذبته وأغلقته فقط، ثم إن طريقة نثر الزجاج في أنحاء الشقة لهي طريقة غبية، فلا يمكن أن يكون هذا منظر زجاج مكسور من الخارج .. هذا منظر رش ملح في طُهور. ثم من أخبره بمكان النقود ؟

ثم مَن هذا المغفل الذي يريد إقناعنا بأن اللص كان ينوي حمل تلفاز، وكمبيوتر، الساعة السابعة ونص على كتفه، في قرية دون أن يلفت انتباه أحد؟ يا سادة.. مَن فعل ذلك، فَعَلَه ليوهمنا بسرقةٍ لم تحدث!

ثم أشرت إلى الزوجة قائلًا: حضرات السادة المستشارون إن الزوجة المصون فعلت ما فعلته بالشراعة والأجهزة الكهربائية قبل خروجها من الشقة، ثم أغلقت الباب، وعندما عادت تفاجأت، وربما صرخت وهي خارج الشقة وقبل أن تدخل؛ لتثير انتباه الجيران وتدخل فزعة، لتجد الأجهزة مع الجيران، ثم تذهب إلى حيث ملابسها.. عفوًا.. حيث النقود؛ فلا تجدها.

كانت عينا الدسوقي تتسعان في بلاهةٍ راسمةً لوحة لا توصف، في حين اقتربت مني الزوجة وعينها تشتعل نارًا مِن خَلْف نقابها وهي تصرخ قائلة: ماذا تقول أيها..

قاطعتها إشارة حازمة من أصبعي، وأنا أنظر في عينيها مباشرة

قائلًا: هل تعلمين ما هو السؤال الأهم؟
نظرت إليَّ متسائلة في توترٍ أنساها ثورتها في لحظةٍ أمام فضولها!
قلت: السؤال الأهم يا سادة..
صعدت إلى أعلى الدولاب، ثم انحنيت أنظر أسفل السرير.. رفعت المرتبة وألقيتها في إهمال..
السؤال الأهم: هل النقود خرجت من الشقة أم لا؟
أقول لكم ذلك؛ لأن الزوجة غريبة عن قريتنا، ومن محافظة أخرى، قريبة (لأبو الدسوقي) من محافظة كفر الشيخ، فهي بالطبع لن تثق في أية أحد في القرية لتخبئ عنده النقود، وتضع رقبتها تحت رحمة أحد.. إذن النقود هنا.
دخلت إلى الحمام والجميع يتبعونني، وقفزت لأرى فوق السخان..
ثم نظرت إليهم قائلًا: ولكن أين؟
نظرت إلى الغسالة الأتوماتيك، ثم ذهبت إليها، ولمحت بطرف عيني ازدياد حركة اليد المتوترة عند الزوجة، ففتحتُ غطاء الغسالة الأعلى قائلًا: وهنا يا سادة.. سنجد أموال ناظر العزبة بالختم عليها، كما في هذا الفيلم العربي..
وضعت يدي في الغسالة، وجعلتها تتحس الملابس القديمة قائلًا للزوجة: أتمنى ألا تكون هنا أي ملابسٍ لطفل فعل بها فعلة قذرة.
ثم أخرجت يدي بملاءة مربوطة، كل طرف في الآخر ليُحفظ شيء فيها، ففككت العقدة، وأنا أقف في ثبات ناظرًا إليهم، فسقطت النقود على أرضية الشقة.
أسرع أحد أمناء الشرطة في التصفيق بحرارة، يتبعه الجنود، في حين ابتسم الضابط في إعجاب وانبهار واضحين.
قبل أن يهتف: أنا لم أر مثلك يحل قضية بتلك السرعة، وهذا الربط

في المعطيات أمامه.
صافحني الضابط في احترام بالغ، وقال لي: لقد تشرفت بمعرفتك، إن احتجتَ شيئًا.. أي شيء، فلا تتردد.
قلت له: الشرف لي، ولكن لي رجاء عندك
فقال الضابط في سرعة: أوامرك يا أستاذ عمر
ابتسمت وقلت له: ذاكرة رائعة!
سحبته برفق، حيث توجد الزوجة، في يدٍ، واليد الأخرى تمسك بالدسوقي..
وقلت له: تلك مشكلة عائلية، دعهم يتعاملون هم معها، لا أعلم ما مبرر الزوجة لفعل ذلك؟ لكننا لا نريد لها الحبس، وأظن الدسوقي لن يطلقها، لم يحدث شيء، لا أعرف في عملك، ولكن أريدك أن تنهيه دون فضيحة، مراعاة فقط للأبناء، وحتي لا تظل سُبَّةً لهم في قريتنا طول حياتهم.
نظر الضابط إليَّ وهو يديرها في رأسه قبل أن يومئ بها موافقًا على طلبي.
صافحته في شكر قبل أن أنظر إليهم جميعا قائلًا:
هل أستطيع الآن العودة للنوم؟!

***

الفصل السادس

في مكاني المخصص في المقهى، أجلس وأمامي عشائي، وكوب الشاي باللبن.. ويجلس على الأرض بجواري صبحي بعشائه أيضًا.
أنظر إليه وهو يلوك الطعام بفمه، وكأنه يأكل وجبته الأخيرة.
يلاحظ الدسوقي نظراتي لصبحي فيقول للأخير: تمهل في الأكل فلن يأخذه منك أحد
لم أُعقِّب على جملته ولكن سألته مباشرة: وماذا فعلتَ مع زوجتك؟
بدا التوتر واضحًا على وجه الدسوقي، بالرغم من أنه كان منتظرًا هذا السؤال منذ أن جلسنا، وربما جهَّز الإجابة بداخله وكررها في نفسه عشرات المرات، إلا أنه عند سؤالي له مباشرة مع نظري في عينيه؛ قد توتر، وأشاح بوجهه بعيدًا وهو يقول: زوجتي -الله يسامحها- ظنت أنني سأتزوج فأرادت بفعلتها هذه أن تضمن مستقبل الأولاد، كانت تظن أن لا أحد سيكتشف فعلتها، وستأخذ النقود وتخبئها للأولاد لو حدث وتزوجْتُ.
نظرت إليه في صمت، لم أتكلم.
كثير من البيوت يصبح الأولاد فيهم هم العامود الوحيد لصمود البيت، ولولاهم لانهار البيت على مَن فيه.
ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة وهو يقول: إن تاريخ ميلادها التاسع والعشرون من فبراير، واليوم هو أول مارس؛ لأن هذا العام فبراير به (٢٨ يومًا) فقط!
قلت له وأنا أغمز بعيني اليسرى لإزالة حرجه: فلتصبح الليلة هي المتممة لشهر فبراير المبارك!
احمرَّ وجهه خجلًا كشابٍّ مراهق..
ابتسمتُ وأنا أنظر إلى هذا الطفل الذي يرفع يده لي في تحية وهو يسير بجوار أمه، فأومئ له برأسي دون كلام

فقال لي الدسوقي: هل تعرف هذا الطفل؟
أجبته دون أن أرفع نظري مِن على الولد: نعم، هذا تلميذي، اسمه طارق سليمان.. من أذكى التلاميذ الذين علَّمتُهم في عمري، هذا سيصبح له شأن في هذه القرية إن وجد الاهتمام والرعاية المناسبين.
أكمل الدسوقي كلامي: نعم هذا ابن سليمان "حلاق القرية" مات أخوه الوحيد سالم؛ بسبب مرض الكبد، وله زوجة وبنتان ومعاش يكفيهما السؤال، وعرض كبار القرية على سليمان أن يتزوج زوجة أخيه؛ حتى يحميها هي وبناتها من كلاب القرية، ولكن أم طارق التي تسير معه هذه رفضت تمامًا، بل قالت له: لو تزوجتها فلتطلقني! ومنعته حتى من الزيارة.
قلت له: أنت أعلم مني بغيرة النساء..
فطأطأ رأسه وأنا أكمل: إن زوجتك لم تحتمل الفكرة.. مجرد فكرة أن تتزوج عليها.
أنا لا ألومها على عدم موافقتها على زواجه، لكن ألومها بالطبع على منعه عن مجرد سؤاله عنهم، وتردده عليهم ربما يكون له فارق كبير في حياتهم، ولكن ماذا نقول؟ هكذا النساء!!

***

في بيتي وحيدًا كتلك الجرثومة التي قتل ذاك المطهر (٩٩) في المية من أهلها، وتركها وحيدة!
أجلس في بيتي، أنا وبعض العناكب، لمْ أخبركم عن خوفي من العناكب؟!

أنا لا أخشى الذئاب، ولا الثعابين، أنا أستطيع أن أمسك الثعبان من ذيله وأرفعه عاليًا، فلا تستطيع رأسه أن تقترب مني، لكني أموت رعبًا من العنكبوت، هذا المخلوق العجيب الغريب رأس وأرجل، أكثر الأفلام رعبًا بالنسبة لي هي أفلام العنكبوت.
أجلس على مكتبي أمام شاشة حاسوبي أنظر إلى الرسائل الخاصة في الفيس بوك، يا لهؤلاء التعساء.. لا أفهم كيف يسألني بعض البؤساء وأنا الأشد بؤسًا منهم عن قرارات مصيرية في حياتهم، لمجرد أنني كتبت منشورًا أضحكهم؟!
كانت توجد الكثير من الرسائل، هذا يريد أن يعرف حكم الاستماع إلى الأغاني، دخل إلى حسابه ثم إلى حسابي ثم بعث لي بالرسالة؛ إذن هو يعرف الكتابة والقراءة! فلماذا إذن لم يسأل (جوجل) ويختار شيخًا من مئات الشيوخ الذين يثق فيهم ويستمع إلى إجابته؟
وتلك مخطوبة إلى أحدهم وتكلم غيره؛ فماذا تفعل؟ عددي يا بنيتي وثالثة تسألني عن شكلي.. لماذا؟ وأنا عندي مئات الآلاف من المتابعين، ولا أحد يعرف شكلي، وهل تتابعينني لشكلي أم لكلامي؟ الكثير قبلها طالبوني بصورتي.
وهذه الرسالة من حساب اسمه (مروة آدم) أعجبتني صورتها الشخصية، كانت صورة لامرأة من ظهرها، جالسة وقت الغروب على حافة هضبة عالية، وكأنها تنوي الانتحار، أما صورة الغلاف فهي لنبتة وحيدة في أرض قحطاء تملأها التشققات، ولكن.. منذ متى كانت تعبر تلك الصور عن حقيقتنا؟
مرة اشتكت لي فتاة من كثرة المعاكسات في الفيس فأخبرتها أن تضع صورتها الحقيقية؛ وستنتهي المشكلة!

عندما يري الرجل منا صورة فراشة، أو زهرة، فيظن الظنون في صاحبة الحساب، لكن تموت تلك الظنون بالصورة الحقيقية..

عدت إلى رسالتها، كانت تحكي لي عن صديقتها التي لا تشعر بالاكتفاء مع زوجها، كانت تشكي إهماله وبروده، وتخشي الطلاق خوفًا على الأولاد.. أجبتها في اقتضاب: لا أعرف!!

يراودني إحساس يا (مروة) أنها مشكلتك أنت، وأنا يا (مروة) ليس لي بال كي أعيش معك في مشكلتك التافهة، مشاغل الدنيا وأعباء الحياة، حملٌ على كاهل كل رب أسرة، توفير الاحتياجات الأساسية للبيت عند "أغلب" الرجال أفضل من بعض الكلمات التي لن تأتي بطعام لأطفالك أيتها الرومانسية.

بالطبع لم أكتب ذلك.. وأظن كلمتي المقتضبة صدمتها؛ فلم ترد.

تصفحت صفحتي الرئيسية، بما فيها من منشورات لأطباء يتندرون على غباء مرضاهم، وربما كانت أم هذا الطبيب أغبى من الحالة التي يصفها، لكنه مرض (الإعجاب والشير) الذي أصابنا.

وبعض أخبار الحروب التي لا تنتهي، يصنعها صانعو الأسلحة، ويخوضها أفرادٌ دخلهم اليومي لا يتعدى ثمن رصاصة واحدة من مئات الطلقات التي يطلقونها.

وهذا يطلب الدعاء لقريبه المريض..

وهذا يكتب منشورًا رثائيًا عن قريبه الذي مات، وعن مدي حزنه وفراقه..

وهذا خطب، ووضع صورة يده ويد خطيبته..

لقد أصبح هذا (الفيس) مملًا، أخشى أن يصيبني الملل منه، فلا أجد ما يصبّرني على هذه الحياة

الفصل السابع

أجذب فيشة المشترك الكهربائي الموضوع فيه فيشة (الكيسة والشاشة والسماعة)، أنا لا أغلق جهازي كما هو المتبع، بل أنزع الفيشة، لا يعنيني ما يحدث له، ولو أصلحته كل يوم، فلا أملك رفاهية الصبر كي أنتظر موافقة الويندوز.

جاءت أكثر لحظات يومي إيلامًا، ما قبل النوم، تلك الأوقات التي تمر عليَّ وحيدًا مكتئبًا، ما أن أضع رأسي على الوسادة حتى تغتصبني أفكاري اغتصابًا، لماذا فعل فلان كذا؟ وماذا كان يقصد فلان بكلمته تلك؟ ولماذا لم أفعل كذا؟ فقد اخطأت عندما لم أفعل كذلك؟ولكن الليلة ليس هناك ما يثير "الآخر" بداخلي على الظهور والحوار معي، فقد كان اليوم عاديًا، -فكّر ثانية يا عمر! .. أليس هناك في أحداث اليوم ما يدعو للكلام؟

* لا.. ليس هناك شيء..

-متأكد؟

* تمام التأكد يا رجل.. لن تجرني الليلة معك في حوار نستطيع تأجيله للغد..

-والدسوقي!

* ما به؟

-كيف شجعته يا رجل على مسامحة زوجته؟

* يا سيدي وماذا فَعَلَتْ؟؟ هي كانت تخشى على أولادها.. فعلَت ذلك من باب حرصها على أولادها.

-وهل صدقتها أنت الآخر؟

* ولماذا لا أصدقها؟

-بربك يا رجل.. كيف تقنعه بالعيش معها ثانيةً، إنها لِصَّة يا رجل.. لصة..

* وماذا فيها ؟ وماذا تختلف عمن توفر من مصروف البيت دون علم زوجها وتظهر النقود وقت الحاجة؟

-الكثير والكثير.. تلك تقتصد من مصروف البيت.. أما تلك فقد كانت سرقة مكتملة الأركان، وشرطة، وكسر باب ..كيف يخونك ذكاؤك!

* ....

عمر؟

....

عمر

....

-عمر هل نمت؟

* أحاول وربي، أحاول جاهدًا

-هل ستتركني وتنام وأنا أكلمك؟

* أتمنى

-عمر

* ها؟

-شيء أخير وأتركك

* ماذا؟

-كيف تظن أن الدسوقي يحتفل بعيد ميلاد زوجته؟

* وما أدراني يا رجل!

-بيني وبينك -وأنت تعرف كم أحبك- ألا تتخيل ماذا يفعلون الآن؟

* لا بالطبع

-لماذا يا عمر؟

* لأنني عمر الواقعي وأنت الخيالي.. أنت عمر الخفي.. اخرج من رأسي واجلس هناك فوق الثلاجة وتخيل ما تشاء..

-ثلاجة؟ وأين تلك الثلاجة؟ الثلاجة اسمها كذلك؛ لأنها تحتفظ بالطعام اللذيذ بداخلها مثلجًا أو باردًا، أما تلك التي تقصدها فربما نسميها دولابًا..

* تمام.. اذهب فوق الدولاب وتخيل، واتركني أنام

-أصبحت ثقيلًا عليك يا عمر؟ كلامك هذا يحزنني للغاية، وأنا الوحيد الذي ظللت بجوارك..

* أنت لست بجواري، أنت بداخلي، وأنا لا أريدك.. كيف أطلِّقك أنت الآخر؟ كيف أتخلى عنك؟

-بسيطة

* كيف

-الانتحار.. يا أنا

* اللعنة عليك.. أنت تدفعني للجنون

-شيء أخير وأتركك لتنام

* لقد قلتَ تلك الجملة منذ ساعتين

-لا، صدقًا

* أفرحني

-بخصوص الفيس.. لماذا (منشوراتك) الدينية قليلة؟

* أنا أكتب ما يخطر ببالي.. ثم إن (جوجل) مليء بكل حرف ديني لمن يريد..

-نعم أعرف أعرف، ولكن لماذا لا تكتب موعظة، أو ذكرًا؛ فيردده الآلاف؛ فتأخذ أنت بدورك أجرًا مثلهم دون أن تتعب؟

* أعدك سأفعل هذا في الأيام القادمة.. أعدك، هل أستطيع أن أنام الآن؟

-بالطبع يا عزيزي.. نومًا سعيدًا

* أخيرًا.. شكرًا لك

-أنت تعلم، أنا لا أريد أن أنهكك، أو أضايقك، ولكن هذه هي

اللحظات التي نتسامر فيها سويًا
*** أعلم**
-أم أنك تنتظر مني أن أحادثك في الشات!
*** لو أتيتني في الفيس سأحظرك**
-عمر؟
*** ها..**
-أتظن بأن مروة، أو صديقتها، كانت في مشكلة حقيقية، وأنت كنت تستطيع المساعدة، لكنك تخليت عنها وتحمل ذنبها؟
*** مروة من؟**
-مروة آدم، صاحبة الرسالة في الفيس
*** أما زلتَ تذكر اسمها؟**
-نعم.. وأحزنني موقفك منها للغاية
*** يا عزيزي.. أنا لا أعلم ظروفها، وظروف زوجها، فكيف أنصحها؟**
-كنت تستطيع أن تسألها لتعرف كل ما تريده
*** أعدك باكرًا سأعود لمحادثتها**
-أنت إنسان للغاية يا عمر
*** شكرًا لك**
-عمر؟
*** ..**
-عمر؟؟
*** ....**
-عمر..
*** أقسم لك سأطعن نفسي إن لم تصمت؛ ليموت كلانا**

*** * ***

الفصل الثامن

تتكرر أحداث يومي برتابة مميتة، نفس الأحداث، نفس الأشخاص، كمشهدٍ يُعاد مرة تلو المرة، المدرسة.. فالمقهى.. فالفيس..
وها أنا جالس أمام حاسوبي، أطالع هذا العالم الأزرق، كم هو مخيف ما قد يتوصل إليه العلم بعد بضع سنوات!
إذا كان هذا الفيس يأخذنا مِن عالمنا الحقيقي، ربما يصبح بعد ذلك ليس مجرد شاشة و(تعليقات)، ربما يستطيعون بعد ذلك إدخال عقلنا بطريقة معينة، أي: يكون جسمي هنا.. ولكن طيفي متواجد بالداخل، نتحادث.. نتسامر.. ربما نتشاجر، ونبعث برسائلنا للنساء دون الخوف من (الشوت اسكرين)، كي نريح أصابعنا من تلك (التكتكات).
أجلس على الفيس، لأرى ما الموضوع الشائع اليوم، فهكذا الجميع، يمسكون موضوعًا واحدًا، والكل يدلي بدلوه فيه، وغدًا موضوع آخر، والكل بوجهة نظره، ويراه من زاويته.
وجدت الكثير من الرسائل، ولفَت نظري اسمها.. مروة آدم، ها هي التي أرقتني "أنا" بسببها طول الليل.
فتحت رسالتها لأجد علامة تعجب فقط!
فأرسلت إليها بعلامة استفهام وانتظرت.. لم يدم انتظاري كثيرًا حتى وجدت منها الرد:
-نعم استغربت جدًا من ردك، لقد نمتُ الليلَ كله أفكر في عدم اهتمامك، ولا مبالاتك الرهيبة!
* سيدتي.. أنا لا أعلم صديقتك، ولا أعلم بظروفها وظروف زوجها.. أنا لكي أنصحها لابد أن أسمع من زوجها، فلربما هي المخطئة في حق زوجها، ربما هي المهملة في نفسها فزهدَها.. وربما.. وربما، فماذا تريدين أن أقول لها؟

قالت: أريد أن تكتب أي شيء أشعر به باستحقاقك مئات الآلاف التي تتابعك!
*** أنا لم أجبر أحدًا على متابعتي.. وأصدقك القول: لا أشعر بأهمية حروفي حتى يتابعني كل هؤلاء.**
-إذن.. فعلامَ يتابعونك؟
*** هم أمامك يا سيدتي.. اسأليهم أنتِ.. فأنا -صدقًا- لا يعنيني وجودهم من عدمه**
-أتريد أن تقول إنه لا يثير غرورك كل تلك التعليقات والإعجابات والمشاركات؟
*** أبدًا.. أبدًا، وغالبا لا أنظر إليهم.. أنا أكتب ما يجول بذهني، أكتب ما أشعره.. أما أن يصادف هذا هوىً في قلوب البعض، أو إعجابهم فهذا شأنهم**
-ألا تشعرك تلك الأعداد بالمسؤولية؟ بسطرٍ منك تستطيع تغيير قناعات الآلاف
*** ههههههههه**
-؟
*** نعم أضحك وبملء فمي أيضًا.. يا سيدتي هناك الآلاف يكتبون غيري، ومئات المواقع والقنوات، وإذا كان هناك شخص سيغير قناعاته بكلمة مني فأنا أشفق عليه؛ لأنه كل دقيقة سيقرأ لآخر ويغير قناعاته..**
-ربما.. ولكن إذا كان هناك من يؤمنون بك أنت وحدك، ولا يصدقون غيرك فهم مسؤوليتك، وسيسألك الله عنهم
*** سيدتي المجادلة.. لم يبعثني الله لهم نبيًا، وليسوا بقومي، ولم أناد فيهم بالرسالة، أنا مجرد رقم على الفيس، ثم أنا لا أدعوهم إلى**

الزنا، أو السرقة..

-نعم.. ولكن لماذا لا تستغل تلك الأعداد في عمل خيري.. في طاعة الله؟

*** غريبة! لقد كان أحدهم طوال الليل يطلب مني هذا، وعمومًا.. هناك الآلاف من الصفحات الدينية، وأنا لست داعية**

-ولكننا كلنا مأمورون بإصلاح مجتمعنا كما نسعى في إصلاح أنفسنا

*** سيدتي المجادلة.. لقد اقتنعت، وها قد ذكرتهم بصيام يوم الإثنين، ألا هدأت قليلًا؟**

-هل تعلم لو صام عشرة أشخاص بسبب هذا الذي كتبتَه ما الأجر الذي قد تجده يوم القيامة؟

*** بشرط النية الصالحة سيدتي، وليس رياءً**

- اوووه.. لقد أثرت إعجابي، أنت تعلم في الدين أيضًا!

*** وهل أنكرت ذلك على صفحتي من قبل؟**

-ظننتك ملحدًا

*** وهل رأيتِ فلاحًا ملحدًا قبل ذلك؟**

-لا، لكنك بعيد كل البعد عن الدين والسياسة

*** أخبرتك.. هناك الكثير، بل أصبح نصف مجتمعنا دعاة، والنصف الآخر خبراء استراتيجيين.. ليس هناك ما يضاف.**

-لم أقتنع.. ولكن دعنا نعُدْ لموضوعنا، بفرض إن الصديقة صادقة، وهي جميلة ومثقفة، هي امرأة متقدة المشاعر، وزوجها بكلمة واحدة: رجل عادي

*** عادي؟**

-نعم.. رجل عادي، إن لم تطلبه لا يأتي ولو مر شهر بأكمله، إن لم

تحادثه لا يفتح فمه وإن ثارت كل براكين الأرض حوله، لا يلفت انتباهه أي تغير فيها ولو قصت شعرها كله وأطلقت شاربها

* ألها شارب؟!

-تلك كناية أيها الذكي

* أعلم، ولكن الكلمة أثارت سخريتي، آسف على المقاطعة.. أكملي

-هي امرأة كانت محط أنظار كل الرجال حولها، وموضع حسد كل زميلاتها.. وهو رجل ربما لا يلاحظ أحد وجوده أو غيابه

* هل لي بسؤال؟

-؟

* صديقتك تلك اسمها مروة آدم أليس كذلك؟

-ما الذي دفعك لقول ذلك؟

* تلك الحرارة بكلماتك التي أشعر بسخونتها من هنا.. لا أحد يستطيع الوصف بتلك المشاعر إلا إن كان يعيشها حقًا

-أنت ذكي فعلًا

* أكثر مما تتصورين

-ومغرور أيضًا

* وما العيب أن يشعر الطاووس بتميزه عن أقرانه!

-إذن يا حضرة الطاووس.. هل عندك حل لتلك الدجاجة المذبوحة؟ ولعلمك: لست أنا .. هي صديقتي .. وأختي .. هي من أكرمني الله بها بعد وفاة زوجي

(اوووه.. إذن فلم أصب الهدف تلك المرة)

* أولًا: رحم الله زوجك..

-ثم؟

* دعيني أتقمص دور الداعية التي تريدين أن أكونه.. تلك وساوس

من الشيطان، ونفسها الأمارة بالسوء، هي تدفعها للخطيئة، نفسها تقدم لها المبررات حتى لا تلُم نفسها لاحقًا، ليس هناك بشر كامل، كلنا يعاني من النقص.. هذا مليء بالمشاعر لكنه مفلس، هذا ذكي وثري ولكنه لا ينجب، هذا يعمل وينجب ولكنه بلا مشاعر...

سيدتي.. أخبريها أن لا تبحث عن النقص، فلتنظر إلى أولادها، هناك من يتمنى طفلًا ولو دفع كل ما يملك.

-هي لم و لن تخن زوجها، أنا أعلم كل شيء عنها؛ فحاذر على كلماتك

*** سيدتي.. الخيانة لا تأتي مرة واحدة، وقد كان الأمر الإلهي أيتها المتدينة بـــ: ولا تقربوا الزنا، مجرد الاقتراب يوقعها في الخطأ، مَن حام حول الحمى يوشك أن يقع..**

-ادع لها

*** ستر الله أختنا**

*** * ***

الفصل التاسع

صلاة الجمعة..

هذا العيد الأسبوعي للمسلمين.. في الصلوات الخمس يتقابل أهل كل منطقة صغيرة، أما في صلاة الجمعة، ويوم الإجازة فيجتمع أهل القرية في المسجد، هي الحكمة من الجمعة، كي نرى مَن لم نقابله طوال الأسبوع، وأن نستمع إلى خطيب قريتنا، الذي من المفترض أنه أكثر أهل القرية علمًا وأدبًا وخلقًا ولغة!

لكنه -في الغالب- للأسف.. مجرد شاب رماه والده في التعليم الأزهري، ورماه تنسيقُه علينا؛ لينصب الفاعل، ويكسر المفعول، ويكسر بداخلي أيَّ أملٍ في الانتباه له ومتابعته.

أغرب ما يقابلني وقت الخطبة هي محاولتي عدم النوم، العجيب أني ليلًا أظل بالساعات أستجدي النوم، أما في المسجد.. فما أن يصعد الإمام المنبرَ إلا وأشعر بأنه عندما يقول: السلام عليكم ورحمة الله.. ينومني مغناطيسيًا.

لا أظن أن الأوقاف تعلمهم التنويم المغناطيسي؛ ليصبوا في عقولنا ما يريدون، ولكن.. ما المانع فعلًا؟

صعد الإمام المنبر المزخرف زخرفة في منتهى التكلف، لست أدري أليست بطون المسلمين أولى من تلك البهرجة؟

قال: السلام عليكم ورحمة الله

نظرت إلى عينيه جيدًا وأنا أهتف في أعماقي:

لا .. لن أنم.. فلتنم أنت

لا أعلم لمَ لا أستطيع الجلوس في المساجد؟ هل لطبيعتي القلقة يدٌ في ذلك؟ أستطيع الجلوس يومًا بأكمله على المقهى، ويقلقني بضع دقائق في المسجد، هل أنا منافق!

المنافق يشعر في المسجد وكأنه عصفور حبيس، وأنا أريد أن

أكون آخر مَن يدخل المسجد وأول من يخرج منه، بل أزاحم الأطفال في الخروج.. أنا لا أستطيع الانتظار عند الحلاق.. هو يستدعيني عندما يأتي دوري، ولا عند طبيب الأسنان، وإن كنت راكبًا سيارة منتظرةً عند مزلقان القطار.. لولا خشيتي من وصفي بالمجنون؛ لترجلت على قدمي وعبرت المزلقان الحديدي، إلى أن تلحق بي السيارة.

نعم لم أفعل شيئًا، لكن يقتلني الانتظار، أنا لا يعنيني ولا يحزنني أن أتصدق بمالي كله، أنا لا يرهقني وإن صُمت الدهر كله، لكن ليس من الصواب أن ينتابني هذا الشعور ببيت الله، لمَ لا أشعر بالطمأنينة في بيت الله؟!

هل بي غضب من الله؟

سأكتب هذا الكلام... سؤالًا على (الفيس بوك) عندما أخرج من المسجد!!

هل لو أخرجت هاتفي وفتحت الفيس أثناء الخطبة سيلاحظ أحد؟

روحي الحائرة المتسائلة تلك سبب تعاستي، عقلي هذا سيوردني المهالك.

أنظر أمامي إلى البعض.. القليل منتبهًا، والأكثر ليس هنا، بعضهم يتقمَّص حالةَ المنتبه المستوعب لهذا الخطيب غير المستوعب هو نفسه لما يقوله.

يا لروعته! لقد جمع إمام قريتنا كل أسماء الإشارة والموصولة في سطر وأحد..

ما الفائدة من تكرار قصة الصخرة التي أغلقت على الثلاثة؟

ما الفائدة من سب أمريكا وإسرائيل أسبوعيًا على منبر في قرية في غياهب النسيان؟

يا سيدي فلتفعل ما تشاء، ولكن نحن هم نفس الأشخاص كل مرة، فلا تُعد علينا ما قلتَه الأسبوع الماضي.
ولماذا لا تتحدث عن مشاكل قريتنا أيها الشجاع؟
فلتعتبر أن (بيارة) هو رئيس أمريكا الذي تذكره ولا تخاف، فلتتحدث عن (بيارة)، أو عن تلك التي فتحت بيتها للدعارة، وبمبلغ كبير؟
فإن لم تستطع منعها من الدعارة؛ فعلى الأقل اجعلها تقلل قليلًا من فاتورتها.. فماذا يفعل (الغلابة)؟ وأين الدعم للمساكين؟ أليسوا بشرًا لهم حق المتعة أيضًا؟!
لستُ معترضًا على الوعظ والرقائق، ولكن فلتجرب مرة.. مرة واحدة أن تتحدث عن مشاكلنا، فلربما استيقظنا وانتبهنا، وربما انتبه لك هذا الرجل المستند على الحائط فاتحًا فمه، مغمضًا عينيه.
أيها الحاج.. فلتُنزل قدميك على الأرض، أو لترتدي المرة القادمة سروالًا تحت الجلابية،
وطلبًا آخر أيها الرجل العاري..
فلتوقظني عند الإقامة.

***

(لو جلست مع حبيبتك خمس دقائق وأمسكت بكوب ساخن خمس دقائق تشعر باختلاف الوقت بينهما، الوقت مع حبيبتك يمر أسرع من الوقت مع الكوب الساخن).

كانت تلكم رسالة من (مروة)

أرملة العنكبوت التي بدأت أشعر أنها ستلتهمني بعدما تقضي مني وطرها، وأنا لا أخشى شيئًا مثل العناكب.

في تساؤل كتبت لها:

* ماذا تقصدين؟

-النسبية يا بروفيسور..

* نعم أعلم، وما مقصدك؟

-منشورك عن تململك في الجلوس بالمسجد

* آه.. ولماذا لم تكتبيه في تعليق؟ كفاكم تحرشًا بالوسيمين أمثالي

-هههههههه .. لو كنتَ وسيمًا كنتَ كل يوم نشرت صورة لك، وأنت على البحر.. وأنت في السيارة.. وأنت في المطبخ..

وإن كنت بين الجمال والقبح كنت ستضع صورة لك كل فترة، أما وإنك يا بروفيسور لا أحد يعرف ملامحك أصلًا.. فأنا على يقين بأنك مشوه.. والحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به غيرنا.

* وأنا على يقين بأن المرأة الجالسة دومًا على مواقع التواصل الاجتماعي هي امرأة بائسة، هاربة من شيء ما!

مِن هجر الرجال لها في الواقع لأنها ليست جميلة؛ فتأتي هنا وترسم لها شخصية أخرى، صورتها زهرة تيوليب، وكلامها حكمة وشعر، واسمًا يدعو للفضول، أو هي امرأة تعاني الحرمان لأي سبب وتبحث عن التعويض.

-أنت بتعميمك هذا تظلم

* أنا لم أعمم.. أنا قلت المرأة التي تقضي يومها كله على الفيس

-ربما هي امرأة تملك الوقت

* وأين أولادها من حياتها؟ وأين زوجها؟ وأين أخواتها؟ وأين صديقاتها؟
-ربما لا تملك أيًّا مِن هؤلاء
* إذن هي تبحث عن بديل للحرمان العاطفي، وليس بالضرورة أن يكون هذا الحرمان شيئًا معينًا، ربما تحتاج إلى الشعور بالدفء.. بالضجيج فقط
-أوكل امرأة تجلس على الفيس هكذا؟
* كل امرأة تدمن الفيس.. نعم
بالطبع لا أتكلم عن المراهقات.. فالمراهقة لم تصبح امرأة بعد
-أنت.. ظالم
* وأنتِ.. تبحثين عن الدفء
-كلا.. أخطأتَ ثانية.. أنا أرملة تملك معاشًا محترمًا يكفي أبناءها سؤال الغير، وأملك وقتًا كثيرًا بعد انتهائي من أعمال بيتي وأثناء نوم صغاري، أو.. وهُم في مدارسهم.. فما الضير من دخولي الفيس قليلًا وليس طول اليوم لأعرف ماذا يدور حولي؟
* إذن لم أخطئ، أنت تبحثين عن الضوضاء
-ربما.. وأنت؟
* أنا ؟! ماذا؟
-ما الذي يدفعك للفيس .. هروبًا من شيء أم بحثًا عن شيء؟
* أنا في حياتي خمس أشياء: المدرسة، والدسوقي، وصبحي، والشاي باللبن، والفيس بوك.. هؤلاء يقتسمون يومي فيما بينهم
-هل لي بسؤال شخصي؟
* دعيه للغد فأنا الآن متعَبٌ جدًا وأريد النوم
-لك هذا.. في رعاية الله

* * *

الفصل العاشر

* امممم ...؟ تفضلي
كانت تلك رسالتي الشخصية إلى مروة، وأنا أجلس في فناء المدرسة، وحيث إنني ليس لدي حصص الآن، وهربًا من حجرة المدرسين، ونميمة أستاذة فلانة، وسماجة أستاذ عِلّان؛ فضَّلْتُ اختيار مروة..
جاءت رسالتها سريعًا:
-أتفضل ماذا؟
* سؤالك الشخصي
-أها.. أنت لا تتحدث أبدًا عن حياتك الشخصية مثل الباقين، فهذا نعلم كم مرة يدخل حمامه.. وهذا يخبرنا ماذا قالت له زوجته على العشاء، وهذا يضجرنا بقصصه مع زملائه وكيف يقنعهم بأفكاره، وكيف هو الذكي الألمعي.. وهذا يحكي مغامراته مع السائقين.. أما أنت فلم تكتب عنك أي تفصيلات شخصية غير أنك مدرس رياضيات، وأنك تعشق الشاي باللبن!
* البشر لا يريدون مشاكل فوق مشاكلهم، هم يريدون من يضحكهم، انظري إلى الصفحات الأكثر انتشارًا.. هي الصفحات الكوميدية التي تعتمد على المنشورات أو التعليقات المضحكة.. لا يحتاج المتابِعون أن أشكو لهم أوجاع عامودي الفقري، أو عن وسواسي القهري، فهُم فيهم ما يكفيهم، حتى وإن شاركوني بالدعاء أو الإعجاب على منشوري.. سيكون من باب المجاملة، هم لم يتابعوا أحد المشاهير ليزيد بؤسهم بؤسًا...
-لا تخشى لن أتضايق.. هل لي أن أعرفك؟
* لماذا؟!
-ليس لسبب محدد، مجرد فضول، وأنا أعرف وسواسك القهري، لا

تخف.. فلست مدفوعة عليك من أحد، ولست شابًا يريد أن يوقعك ويصور تلك الرسائل ويسخر منك

* وما إثباتك؟

-عن ماذا بالضبط؟

* عن أنك امرأة!

-هاتفني تليفونيًا أو اتصالًا عن طريق الفيس

* وما أدراني أنك من ستكلمينني وليست فتاة اتفقتِ معها؟

-حسنًا.. ماذا تريدني أن أفعل

* سجلي لي صوتًا بآخر منشور لي.

-ومَن أدراك أنها ليست الفتاة التي اتفقت معها؟ وعمومًا:

(خلق الإنسان من صلصال، ألهذا علاقة بأن بعض البشر مجرد قُلل)

ها.. هل اطمئن قلبك؟

* بالطبع لا، الآن أنتِ امرأة.. ولكن أي امرأة؟

-اللعنة على وسواسك القهري، أنا كنت أعرف أنك تعاني بعض مشاكل نفسية، لكني لم أكن أتصور حجمها.

* هل الحرص أصبح مرضًا نفسيًا؟ أنا لست نكرة، ولا يسعدني أن تأتي امرأة تجعل مني مزحة تتناقلها المواقع

-كيف أثبت لك؟

* صورة بطاقتك؟

-أوامرك.. لكن سأخفي الاسم كاملًا.. سأظهر لك العنوان

* ولماذا تخفي الاسم؟ أليس اسمك: مروة آدم؟

-ليس كاملًا.. سأخفي اسمي الكامل، وصورتي وسيكون معك عنواني كاملًا، لو تجاوزتُ في حقك.. اركب سيارة وتعال عند أهلي

واقضحني، ولكن سأترك الاسم مخفيًا
*** اتفقنا.. ولكن لأعرف أنها بطاقتك وقد قمتِ بتصويرها حالًا فأريدك أن تخفي اسمك بإبهامك الأيمن، وتشيري إلى العنوان بسبابتك اليسرى**
-وكيف أمسك بالمحمول لأصورها؟!
*** دعي أحد أطفالك يقم بتلك المهمة**
-نائمون
*** إذن، فلتحضري جنيهًا فضيًا وسأخبرك ما تفعلين به، ولو تأخرتِ في فعل ما أريد؛ فسيقول لي وسواسي إنك اتفقتِ مع إحدى صديقاتك لتصور لك بطاقتها، ثم ترسلها إليك، ثم ترسلينها إليَّ**
-لا لا لا.. لقد أصبحتْ حالتك ميؤوس منها فعلًا، وأنا لا أريد أن أعرف منك أو عنك شيئًا
*** لماذا تتراجعين؟ الأني كشفت خطتك؟**
-خطة ماذا أيها الـ.. لا لم أتراجع، معي الجنيه الفضي، ماذا تريدني أن أفعل به؟
*** سريعًا ضعي إبهامك على الجنيه الموضوع على اسمك ثم صوريها حالًا.**
لم تمض ثوانٍ إلا ووجدت صورة البطاقة كما أردت، نظرت إليها في تأمل قبل أن أسالها:
*** أنت من دسوق؟**
-نعم.. أية أوامر أخرى؟
*** هل تعرفين (جماجمون)؟**
-نعم، هي قرية بجوارنا.. كيف تعرفها؟
*** كان لي صديق في الجامعة منها اسمه (علي النعيري) لم يكن في**

كليتي، كان في كلية التجارة ولكن كنا مقربين جدًا
-وكيف تعارفتما؟
* في مشاجرة.. والآن ماذا تريدين أن تعرفي عني؟
-كنت أريد أن أعرفك ولكنك بتشكك في أصبتني بالإحباط منك صدقًا
* أعتذر وبشدة
-اعتذارك الوحيد هو أن تحكي لي كل شيء عنك بالتفصيل
* تلك مساومة غير عادلة
-كيف؟
* سأحكي لك كل يوم شيئًا
-لماذا؟
* لتظلي في انتظاري كل يوم، ولا تملي مني سريعًا
-اطمئن.. لن أمَلَّ منك بسهولة، والآن لقد سهرت كثيرًا.. سنبدأ التحقيقات من غد، واعلم أن الإنكار لن يفيدك
* تمام يا سيادة النائب العام
-سأمشي الآن لأنام.. وغدًا نكمل، سأكون بانتظارك.
ثم أرسلتْ لي رمزًا تعبيريًا مبتسمًا.
سأكون بانتظارك.. أظنها أفضل كلمة قالتها لي أنثى يومًا..
سأكون بانتظارك.. هل حقًا لتلك الكلمة هذا التأثير؟ أم أن قلبي يعاني الجفاف، فعندما رأى الماء يصبو إليه، وإن كان ماءً مالحًا!

***

الفصل الحادي عشر

أين الدسوقي؟!
أجلس على المقهى وحيدًا، وتمر عليَّ ساعاتٌ ثلاث بدون الدسوقي، إلى أن يظهر سابحًا في عرقه كطائر البطريق، هل يعرق طائر البطريق؟!
كان الدسوقي يعرق بشدة، ويتنفس من فمه، طلب شايَه من عمِّ محسن..
أنظر إليه سائلًا:
-أين كنتَ طوال اليوم أيها التعس؟
نظر إليّ فاتحًا عينيه غير مصدق:
* أنت لا تعرف؟! ألم تسمع ما حدث!
أمط شفتي في امتعاض، وأنظر إلى كيس الدهن الملقى بجواري:
-لا أعرف بالطبع، ولكني أتسامر معك.. ماذا حدث أيها الغبيّ..؟
* إحدى سيارات قريتنا اصطدمت بإحدى الشاحنات، ومات أكثر من ثمانية أشخاص من القرية
-لا أعلم حقًا.. لقد لاحظت بعض الحركة في قريتنا، ولكني لا أهتم كما تعلم
* بالطبع لن يخبرك أحد.. فأنت هنا تجلس لوحدك.. القرية بأكملها هناك، فما أحد في القرية إلا وله في الأربعة عشر راكبًا إما صديق، أو قريب أو جار متوفى أو مصاب
-لا حول ولا قوة إلا بالله، صدمة كبيرة حقًا !
أشار بيده في اعتراض وهو يحتسي كوب الشاي الذي أحضره له عم محسن:
* لا لا.. أنت لا تتخيل الحال.. أنا من أوائل من وصل لمكان الحادث قبل سيارات الإسعاف أيضًا، أشلاء مبعثرة.. قدم لا نجد صاحبها..

رأس بلا معالم.. أنا لن أقرب اللحم لفترة؛ لأنه سيذكرني بتلك المشاهد.
هز رأسه في عنف قبل أن يضع شاربه قبل فمه في كوب الشاي.. كيف يقبل زوجته بهذا الشارب؟!
-رحم الله من مات، وشفى الله مصابينا
قاطعني قائلًا:
*** هل تعرف من مات من الثمانية؟!**
-بالطبع لا أعلم أيها الذكي
لم يُعر إجابتي انتباهًا:
*** والد تلميذك النجيب.. طارق سليمان! وزوجته بتروا ذراعها**
-ماذا؟ من! والد طارق سليمان مات؟؟ هذا الطفل كان سيصبح له شأن، أما الآن.. إنها خسارة كبيرة حقًا!!
ثم ها هي زوجته التي رفضت أن تُزوجه من زوجة أخيه الذي مات.. يا سبحان الله! الآن مات زوجها.. وأصبحت بلا ذراع الآن تذق من نفس الكأس!
هل هو عقاب إلهي لها؟
هل هي رسالة أخرى لنساء القرية؟ لا أعلم.
غريبةٌ هي الحياة..
سرحت ببصري بعيدًا في لا شيء، وهنا.. تذكرت صبحي
أين صبحي هو الآخر؟
لم أره منذ الصباح.
مروة.. قلبت حياتي رأسًا على عقب
منذ يومين.. لمَ لمْ تعد تراسلني ولا تظهر لي منها أية إشعارات!
ماذا حدث لها؟

بعثت لها رسالة بالسؤال أين هي؟ لكن الرسالة لم تشاهد أصلًا.
ربما هذا ما شغلني عن صبحي، لم يحدث مرة أن أتيت للمقهى ولم أجده.. أين هو؟
التفت إلى الدسوقي قائلًا: ألم تر صبحي اليوم؟
هز رأسه بالنفي.
أين صبحي؟!
لن أهدأ.. أنا أعرف نفسي حينما تسيطر عليها فكرة، فلا أستطيع طردها من رأسي مهما حاولت إلا بعد حلها، ومما ساعدني أن الوقت ليس ليلًا، كما أنني لا أنوي النوم، فما المانع أن تشغلني تلك الفكرة!
نهضت واقفًا، نظر إلي الدسوقي متسائلًا:
-إلى أين؟
* سأبحث عن صبحي
مستنكرًا يقول:
-والجنازات؟ ألن تحضرها ؟!
* متى ستأتي تلك الجنازات؟!
-سيأتون تباعًا؛ لأنه ليس هناك نعوش في القرية تكفيهم، فمن تنتهي إجراءات دفنه وتصاريحه؛ سيأتي أهله به.
* حسنًا.. سأكون في القرية، لن أذهب بعيدًا، وعند حضور أول جنازة سأحضر.
أين سأبحث؟!
إذا كنت مختلًا فماذا ستفعل؟
أين تذهب؟!
هل ربما ترك البلد؟

لا أعلم من سأسأل عنه
سيقول السفهاء في قريتنا: مختلٌ يسأل عن آخر
بالأمس كان يشتكي بطنه، وكان يريد الذهاب إلى المستشفى، لكني لم أهتم كثيرًا.. هل ذهب للمستشفى؟ ربما.. إذن، أول مكان سأسأل عنه فيه هو المستشفى.
تلك الوحدات الصحية الموجودة بالقرى للنميمة، والغيبة، وتقطيع الملوخية، وتنظيم النسل.
ها هو الدكتور شريف فريد، مدير المستشفى.. هل تعلم يا دكتور لو كنت مكانك لتعاملت مع هؤلاء النساء بالسوط، صدقني لن يغضب منك أي زوج!
هش وبش الدكتور شريف عندما وجدني مقبلًا عليه ووقف ليصافحني قائلًا:
-أستاذ عمر.. كيف حالك يا رجل؟ وأشار إلى المقعد أمامه إشارة لي بالجلوس.
جلست وأنا أقول له:
* بخير حال والله يا دكتور.. جئتك لأسأل عن..
قاطعني قائلًا: صبحي!
قبل أن يهز رأسه آسفًا: لقد مات
نظرت إليه مذهولًا وهو يكمل: أنا أعلم أنك الوحيد الذي تهتم به، وكنت على وشك أن أسأل عن رقمك لأخبرك..
لم أسمع باقي حديثه، ما زلت مصدومًا.. نعم؟ .. مات؟ صبحي مات!!
أشار الدكتور شريف إلى غرفةٍ مجاورة، نهضت دون أن أستمع لباقي كلامه، ووجدت ملاءة بيضاء تغطي جسدًا، رفعت الملاءة

لأجده.. لقد مات صبحي!
مات انعكاسي على خط الأعداد، شبيهي، أنا أختلف عنه إشارة الموجب فقط، وربما هو من يمتلك أمامه الموجب.
مات قريني..
مات
ما هذ؟
إني أبكي
إني أتفحم بالبكاء
أنظر إليه صامتًا ولا أستطيع أن أمنع نفسي من البكاء.
يأتي الدكتور شريف وبعض الممرضات يلتفون حولي في دهشة أكثر مما هي مواساة..
عمر شاكر يبكي!
أنا لا أذكر متى آخر مرة بكيت فيها، لا أب لي ولا أم، والطفل يبكي لأحدهما لاستعطافهما لفعل شيء، وأنا فهمت مبكرًا أني لا يجب أن أستعطف أحدًا.
يربت الدكتور شريف على كتفي في تعاطف..
وأنا أبكي.. أبكي صبحي، وأبكي أبي وأمي، وأبكي ابنة عمي، أبكي وحدة تتسع لتلتهمني فيها..
حاولت لملت نفسي، كفكفت دموعي، وضعت الملاءة ثانية على وجهه، قلت للدكتور شريف:
-نريد غسله وتكفينه ودفنه يا دكتور
* كيف سنتخرج تصريحًا لشخص لا نعرف اسمه كاملًا؟
مَن سيتحمل مسؤولية فتح المقابر له؟
-يا دكتور: اليوم في القرية ثمانية جنازات تقريبًا، نصف مقابر

القرية مفتوحة
* يا أستاذ عمر: الموضوع ليس بتلك السهولة، لابد للشرطة أن..
قاطعته في عصبية: إذا كانت المشكلة في الداخلية، فأنا سأتصرف.

***

أغلقت باب بيتي بإحكام، دخلت بيتي منهكًا، ألقيت بجسدي على سريري، وضعت ذراعي على عيني المغلقة حتي لا أرى أي ضوء.. الآن أصبحت وحيدًا تمامًا.
دفنت صبحي بعدما تواصلت مع ضابط المباحث، صاحب واقعة سرقة شقة الدسوقي، والرجل تعاون معي كثيرًا، وخيرني بين عدة خيارات، كان اختياري منها: أن نغسله ونكفنه وندفنه دون أي تراخيص.
كانت جنازة أخرى من ضمن الجنازات، بالطبع كانت ليلة لا تنسى، البلدة كلها حزينة، البلدة كلها متعلقة بالنعوش، ليلة لم يمر بالبلدة مثلها، إلا ليلة وفاة أحد التوأمين أبناء خيري، لكنها كانت جنازة واحدة، أما اليوم .. فثمانية !
وصبحي.. مات صبحي
ما الهدف الآن من استمرار حياتي؟
ما الذي يفرق إن مت اليوم أو غدًا؟
من سيذكرني بعدها؟
هل هناك في القرية الآن أحد يتحدث عن صبحي؟
بالطبع لا، كذلك أنا .. حين أموت سأصبح كصبحي، لا أحد سيذكرني إلا كل حين، لا ابن لي ولا زوجة ولا أخ.. سيندثر اسمي، أنا عمر شاكر، نهايتي ستصبح مثل أي كلب أجرب جاء إلى القرية

ثم ذهب بلا أي فائدة ولا أي ذكرى ولا أي أثر.
ما إنْ يضعوني في قبري وينفضون أيديهم من التراب إلا وقد انتهت ذكراي..
(ماذا يفعل الإنسان ليظل يذكره الناس؟!)
بعثت بتلك الرسالة إلى مروة، لا أعرف لماذا فتحت الفيس ثم أرسلتها إليها، ولم أكتبها منشورًا.
هل أغلقت باب بيتي؟
قمت لأتأكد ووجدته مغلقًا، وعند عودتي وجدت منها إجابة:
-وماذا يفيد ذكر الناس؟
*** كيف؟ أنت امرأة فلا تشعرين بمعنى انقطاع اسمك من الدنيا!**
-نعم لا أعلم.. لكني أعلم أن كل من رحلوا لم يستفيدوا من ذكر الناس لهم -إن كنت تتكلم عن الاستفادة الدنيوية-.
*** أين كنتِ؟**
-انتهت باقتي ولم أجددها إلَّا الآن.. ما بك؟
*** لماذا؟**
-تبدو مختلفًا!
*** ساخرًا: هل عيناي حمراوتان؟**
-صدقًا.. ماذا بك؟
*** سأحكي لك كل شيء.. كل شيء، بشرط واحد..**
-ما هو؟
*** أن تخبريني بعدها كيف أُبقي اسمي محفورًا في ذاكرة أهل القرية؟**
لكن دعيني أولًا أتأكد أني أغلقت بابي.

الفصل الثاني عشر

أنا يا أستاذة مروة: عمر شاكر، أربعون عامًا إلا أسابيع قليلة، مدرس رياضيات، مطلق، لا أنجب، وحيد كزهرة سوداء لا شبيه لها ولا قرين.

-حولك كل هؤلاء على الفيس وتشتكي الوحدة!

*** نعم، هم يسببون ضوضاء ولكن كضوضاء أحد الأفراح الشعبية بالشارع الذي تسكن فيه، وبينك وبين صاحبه خصومة.. فلا عشاء أخذت ولا مشروبات، ولم يكن نصيبك منه إلا الضوضاء..**

-ولكن الآلاف يتمنون منك إعجابًا على صفحاتهم، أو تعليقًا عندهم!

*** عالم خيالي.. في النهاية، ليس حقيقيًا، لا يستطيع أحد منهم أن يمد يده ليربت على كتفي.. أو يحتضنني..**

-وهل رجل بالغ مثلك يشتاق حضنًا؟

*** رجل بالغ مثلي لا يشتاق إلا حضنًا دافئًا**

هل تعلمين.. أنا لا أتذكر يومًا أن أحدًا أخذني في حضنه، عمي هو من رباني صغيرًا، ولا أذكر يومًا أن احتضنني أو داعبني

-فلتتزوج إذن

*** رجل في سني الخيارات أمامه محدودة، إن لم تكن معدومة.. فربما أم بيومي التي تزورني كل شهر لتنظف بيتي تكن أكثر ودًا وحنانًا ممن سأتزوجها، أنا لن ترضى بي امرأة بظروفي تلك.. إلا مَن تبحث عن ظل حائط.. وأنا أريد امرأة تكن ظلي وأكن ظلها، تكن انعكاسًا لأفكاري ومشاعري..**

-لا تقل هذا.. أنت ألف امرأة تتمناك زوجًا

*** شاكر جدًا لمجاملتك**

-أبدًا، لست أجامل

*** كم عمرك؟**

٣٢-

* هل تتزوجينني؟

-دون أن تراني؟

* نعم

-هذا شرف لي.. لكن وقتها سيحرمني أهل زوجي من أبنائي

* إذن أنت لا توافقين.. دعك من المبررات.. ألم أقل لكِ!

والأمر ليس زوجة، الأمر أنني لم أعد أستطيع التعامل مع البشر، ولم أعد أحتمل نفاقهم وكذبهم،

أنا حباني الله بموهبة .. هي قراءة الأحداث، قراءة لغة العيون، أنا عندما تُكتب أمامي مسألة رياضية لا أعرف كيف يأتيني الجواب، عندما أسألك ما مجموع واحد زائد واحد فأنت لا تفكرين، تجدين الإجابة في عقلك تلقائيًا.. هذا هو أنا.

أجد حلول الأشياء أمامي هكذا فجأة، لا أعلم كيف؟ لكني أثق في عقلي.. شقة صديقي سُرقت، وعندما دخلتُ أضاءت لمبة في عقلي؛ فعرفت القصة كلها كأنني عايشتها.

-وهذا يتعبك؟

* لا، ليس هذا.. لكن ما يتعبني هو قراءتي للأشخاص، فأنت تفهمين لماذا يضحك هذا في وجهك، أو بعدما تمرين من أمام مجموعة ويصمتون عندما أنظر في عيونهم؛ لأنهم يغتابونني وتوقفوا قليلًا إلى أن أمرّ ليكملوا نهش لحمي

-من يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير ممن لا يخالطهم

* عقلي أيضًا يتعبني.. بدأت الأمور تفلت مني، منذ عودتي للآن قمت ثلاث مرات لأتأكد من غلق الباب.. ثم كلامي مع نفسي، بدأت الأمور تفلت مني..

المشكلة أن الناس بدأت تلاحظ، أكون في جلسة ما صامتًا شاردًا، أفكر مثلًا.. في مروة! وأقول: ولكن الحديث مع مروة لهو شيء ممتع حقًا.

هذا أقوله في شرودي، ثم أكمل: تراها جميلة حقًا؟.

وهنا.. ألاحظ أن الناس تنظر إليَّ لأكتشف أن الجملة الأخيرة قد نطقتها بصوت عالٍ، فأحاول أن أؤلف حوارًا مثلا أقول لهم: أنا فقط أقول لقد أصبحت بلدتنا جميلة حقًا.

في بادئ الأمر كان يخيل عليهم هذا، إلي أن اكتشفوا اللعبة، عمر شاكر.. يكلم نفسه!

-لا عليك.. كل شيء له علاج

* هل يفترض مني الان أن أصرخ: لست مجنونًا، حين يقوم اثنان قويَّان بالاحتيال علي ليلبساني (البالطو الأبيض)!

-لا، لست أقصد..

* أنا كل هذا لا يعنيني.. فقط كل ما يشغلني أن أترك أثرًا في القرية؛ حتى لا ينسى أحدٌ "عمر شاكر"

-مثل ماذا؟

* سأخبرك في وقتها، لكنني الآن متعبٌ بعد يوم من أطول أيام حياتي

-هل ستنام؟

* سأحاول

-أحلامًا سعيدة أستاذ عمر.. لكن لا تنس أن تتأكد من إغلاق الباب

-عليك اللعنة!

في المدرسة ألقي حصتي..
بالطبع لم يأت "طارق سليمان" ذلك التلميذ العبقري، مات والده ووالدته في المستشفى..
"أستاذ عمر، أنا ميرفت زوجة الدسوقي، هل أستطيع محادثتك الآن في أمر بالغ الأهمية، لا أستطيع أن أخبر زوجي به".
رسالة عبر الهاتف!
عجبًا وألف عجب! ماذا تريد مني تلك المرأة؟
تركت فصلي وخرجت للفناء حتى لا يسترق أحد السمع، واتصلت على الرقم المرسِل للرسالة، أتاني صوتها:
-آسفة للغاية يا أستاذ عمر.. أنا حصلت على رقمك من تليفون زوجي دون أن يدري.. أريدك في أمر بالغ الأهمية، هل أستطيع مقابلتك أمام بوابة المدرسة بعد خمس دقائق؟
* سأكون بانتظارك
أغلقت هاتفي.. وذهبت للبوابة منتظرًا لها، ومتسائلًا في حيرة:
ماذا تريد تلك المرأة مني؟
أتت إحداهن بنقابٍ واقتربت مني؛ إذن هي بلا شك
-أستاذ عمر أنا أستنجد بك فهل تنجدني!
في جدية وقد أثارتني جملتها:
* طبعًا طبعًا
-أنا لا أهل لي هنا .. أنا غريبة عنكم كما تعلم، فهل تكن لي أخًا وتدعني أصارحك بمصيبتي؟
* خيرًا.. تكلمي بلا مقدمات.
نظرتْ حولها في محاولة للتأكد أنه لا أحد يستمع، كان منظرنا لا يدعو لأي فضول، فكل من سيشاهدنا سيظن أن الأمر عبارة عن:

مدرس يقف مع أم أحد التلاميذ.
قالت وهي تفرك يديها:
-أنا بدون مقدمات: كنت أحادث أحد أقاربي هاتفيًا، وبدون أن أكذب عليك.. ففد كانت مكالماتنا عاطفية، نعم.. كان حُبًا قديمًا قبل الزواج، قُل عني ما تريد.. قل خائنة، قل كاذبة، لكن.. أنقذني
* أكملي
-منذ فترة ضاع مني تليفوني، وكنت قبلها بدقائق أهاتف قريبي هذا، وتليفوني يسجل المكالمات آليًا، وأنا أمسحها، لكني لم أمسح تلك المكالمة الأخيرة، زوجي أعلن عن ضياع تليفوني.. ربما تَذْكُر!
* نعم أذكر.. كان منذ شهور، وقد وجده أحد الشباب
-لا، مَن وجده باعه "لعادل بيارة" مقابل بعض المخدرات، التليفون به كلمة سر، فكنتُ مطمئنة أن أحدًا لن يستطيع فتحها، لكن "بيارة" بطريقة ما نجح في ذلك، وسمع المكالمة، وعندما أعلن زوجي عن هويتي؛ عرفني "بيارة".. وبعدها أرسل التليفون لزوجي مع أحد صبيانه، ثم بدأ في ابتزازي..
تراجعت بجسدي وأنا أصرخ:
* ابتزازك؟.. لهذا فكرتِ في السرقة؟
-نعم، لقد أخذ مني حاليًا أكثر من عشرة آلاف جنيهًا.. ويريد المزيد.. أستاذ عمر! ليس لي أحد هنا بعد الله إلا أنت.. أخبرني ماذا أفعل؟
* لن تفعلي شيئًا.. أنا سأفعل
لا تحملي همًّا يا زوجة صديقي، ودعيها لله..
قبل أن أقول في صرامة:

ولكن لو علمتُ أنك ما زلتِ على اتصال بقريبك هذا فاعلمي أنني أنا من سأفضحك!!

طأطأتْ رأسها في انكسارٍ قبل أن تقول:

-لقد تعلمتُ الدرس يا أستاذ عمر

* اذهبي الآن.. وأبشري.

مضت ميرفت زوجة الدسوقي وقدماها تضربان بعضهما من الإحراج والخجل.

* * *

الفصل الثالث عشر

هذا "البيارة" ماذا يظن نفسه؟
هذا الغبي.. وصلت به الحماقة أن يبتز نساءنا؟
ومن؟ .. زوجة صديقي!
هي معركة سأنتصر فيها انتصارًا ساحقًا، ولكن.. صبرًا
هو يحتفظ بالتسجيل قطعًا في محموله.. أستطيع أخذ محموله وفتحه مهما كان نقشه، فهذا الغبي لن يستخدم نقشًا صعبًا.
ثم مع العرق والتراب على شاشته ووضعه في انعكاس الضوء؛ فسأجد أثر أصبعه على الشاشة، ولكن ماذا سنصنع إذا كان عنده نسخة أخرى من هذا التسجيل؟!
لا مفر إذن من مساعدة الضابط..
بالأمس احتجته.. واليوم كذلك، أظنه قريبًا سيطلب نقله بسببي.

* * *

في إحدى غرف قسم الشرطة غير الموجودة، ولا يعلم أحد بها، كان يقف "بيارة" بجوار مخدراته التي في جيبه، والتي على دراجته البخارية، ومحموله.
كنت أقف ساكنًا لا أتحرك، في حين أن الضابط بنظارته الشمسية كان يدور حول "بيارة" الذي يرتعد خوفًا قبل أن يقول له:
-لماذا فعلت بنفسك هذا يا بيارة؟
كل هذه الكمية من المخدرات، مع إذْن النيابة، مع تصويرك بالفيديو أنت ومخدراتك.. هذه قضية أقل ما يقال فيها مؤبد.. إن لم يكن إعدامًا
انهار بيارة على الأرض باكيًا وهو يمسك بقدمي:
* والله يا أستاذ عمر آخر مرة.. لن أكررها، والله لن أقربها ثانية،

لا تجارة ولا تعاطيًا.
نظرتُ إلى صديقي الضابط قائلًا:
-فلنسامحه هذه المرة من أجلي أنا يا عزيزي، فلن يزيد السجن به شيئًا غير تكلفة طعامه وشرابه.. لكننا محتمل أن نستفيد به مواطنًا صالحًا.
انحنى بيارة على قدمي يقبلها قائلًا:
* أقسم لك سألتزم.. ارسم لي خطًا في قريتنا وأنا لا أتخطاه.
نظرت إليه قائلًا:
-ولكن بشرط
* أنت تؤمر يا أستاذ عمر
-مكالمة زوجة الدسوقي التي تبتزها بها.
تسمرت عينا بيارة وهو ينظر إلي، قبل أن أنحني إليه قائلًا في غضب:
-نعم.. أنا من أبلغهم عنك، أنا من سيسجنك طول عمرك ولن تجرج من السجن إلا كهلًا أو ميتًا، ستنام على بلاطة واحدة، وتخشى أن تنام على بطنك ، لن ترى النساء إلا في الزيارات من خلف الأسلاك.. ورويدًا رويدًا لن يأتي أحد لزيارتك؛ لأنك كلب أجرب.
في انكسارٍ:
* ماذا تريد مني يا أستاذ عمر؟
-أريد تلك المكالمة.
أشار برأسه إلى محموله:
* هي في تليفوني هذا، أعطني إياه وسأمسحها لك حالًا
-اتفقنا.. وتجارة المخدرات؟
* لا، لقد تبت

-سنرى.. ولن نخسر شيئًا لو كررنا ما فعلناه بك، والمرة القادمة ربما نضع في المضبوطات أحد الأسلحة الميري التي تم سرقتها من ضابط شرطة بعد قتله
* صدقني يا أستاذ عمر لقد ولَّت أيام بيارة تمامًا.
نظرت إلى الضابط قائلًا: وماذا لو أن هناك نسخة أخرى من التسجيل؟
أشار الضابط إلى قميص نوم نسائي أحمر قائلًا: هذا ضمانك يا أستاذ عمر.
ضمَّ بيارة ياقة قميصه في خوف وهو يقول في رعب: ماذا ستفعلان بي؟
ضحكت وأنا أقول: لا تسرح بخيالك بعيدًا يا أبله، فلستَ من نوعنا المفضل، أنت ستخلع ملابسك كلها وترتدي هذا القميص وترقص قليلًا وتتمايل أكثر، وسنصور هذا، والفيديو سيكون مع ميرفت زوجة الدسوقي.
لو ظهر في أي يوم، ولو بعد سنين هذا التسجيل الصوتي فقبل طلاقها ورحيلها عن القرية ستنتشر لك الفيديو، ووقتها ستصبح الآنسة بيارة!
أظن أن هذا عادلًا يا عادل؟
فمع جزمك بأنه ليس هناك نسخة أخرى للتسجيل فلن تخشى من افتضاح أمرك، ثم هناك أمر آخر .. سنأخذ تليفونك القديم هذا وتلك النقود لنعطيها إياها.. اتفقنا؟
لم يكن أمام بيارة إلا الموافقة، ولم يكن من الصعب إجباره، بل كان أصعب جزء هو رؤيته وهو يرقص بهذا الثوب الأحمر.

أعطيت المحمول والنقود لميرفت مع تلك الشريحة التي تحتوي على الفيديو الفضيحة لبيارة، وأخبرتها أن هذا هو ضمانها فلربما مِتُ أو نُقل الضابط، ووقتها لن نستطيع توقع كيف سيكون انتقام هذا الغبي المجروح في رجولته.

ومضى الأمر على خير..

وأخيرًا.. أستطيع العودة لمروة ببالٍ خال.

ولكن أولًا لأذهب إلى طبيب لأجد حلًا لهذا الصداع القاتل.

***

الفصل الرابع عشر

(كيف حالك يا أستاذ عمر؟)

رسالة من مروة

-كفاكِ قول "أستاذ" تلك!

* وماذا تريدني أن أقول؟

-عمر.. ألم نصبح أصدقاء؟

* صدقًا، وأكثر

-إذن، عمر

* وأنت بماذا سوف تناديني؟

-أنا!

* نعم؟

-أنا.. سأناديك بــ أنا

* وماذا تعني؟

-أنت تشبيهين أنا التي يحاورني دائمًا.. نفسي الأخرى

* وهل تحبها أم تكرهها؟

-وهل يكره أحد نفسَه؟

* نعم.. من ينتحر أوليس يكره نفسه؟ وهل بعد القتل العمد كره؟

-عندما أنوي الانتحار فأعلمي أني بدأت في كرهك

* وهل سأقرأ خبر انتحارك على الفيس؟

-ثم تفاجئين بي بعدها حيًا.. كما فعل البعض.. يريدون الانتحار ولا يستطيعون، أو يطلبون شهرة

* لقد غيرتْ تلك الوسائلُ الاجتماعية فينا الكثيرَ

-أوافقكِ يا.. أنا

* بما أنني أصبحت أنا فأريد أن أعرف ما يشغل نصفي الآخر

-أريد بعد موتي أن أظل مذكورًا

*** يا عمر، دعك من هذه الفكرة التي تسيطر عليك، أخاف عليك**
-هل تعلمين أن الأعداد موجب وسالب وبينهما صفر؟
*** نعم**
-أنا عند موتي سأصبح صفرًا
*** كلنا سنصبح أصفارًا**
-لا.. أنت عندك أبناؤك.. أنتجتِ شيئًا، أما أنا.. فصفر، المعضلة الرياضية هنا كيف أحرك الصفر ليصبح موجبًا؟
*** الصفر ليس موجبًا**
-بالطبع أعلم ولكن كيف سيصبح موجبًا؟
*** وهل يمكن؟**
-ما زلت أحاول، ولكن دعني أولًا أضرب لك مثلًا.. عند انتهاء مباراة كرة بين فريقين وبرغم التعادل، وبغض النظر عن فرق النقاط، إلا أنك تجدين أحد الفريقين فرحًا بأداء فريقه.. النتيجة صفر، ولكن تحركت قليلًا للموجب بفضل الأداء، هنا أستطيع أن أقول لك: إن الفريق (أ) كسب الفريق (ب) موجب صفر!
*** أول مرة أسمع عن هذه النظرية!!**
-نعم؛ لأنها نظريتي أنا فقط
*** أخيرًا وجدنا جون ناش المصري؟**
-هل تعلمين أن جون ناش عندما التقى بمصري كان سائق السيارة الأجرة التي ركبها فمات بها إثر حادث أليم؟
*** ماذا تقصد؟**
-هو التقى بمصري فكانت نهايته.. وأنا وسط تسعين مليون مصري
*** فلتتحملنا يا عمر.. فنحن أبناء بلدك في النهاية، وهل أفهم من كلامك أنك لو كنت سافرت كنت ستحدث فارقًا؟**
-أنا.. لو ظل زويل بمصر لكان أقصى ما سيصل إليه أن يصبح

مدرسًا أول في إحدى المدارس الحكومية، وعندما يتشاجر أولياء الأمور في أول العام الدراسي على المقاعد الأولى كان سيلجأ إلى الترتيب الأبجدي فرحًا بهذا الحل العبقري!

* عمر..

-نعم

* أريدك أن تتخلى عن تلك الفكرة

-لا بالطبع، وقريبًا سأفاجئك

* لا أعلم، ولكن قلبي غير مطمئن

-اطمئني

* ماذا كنت تفعل قبل أن أبعث إليك برسالتي؟

-أشاهد فيلمًا أجنبيًا

* هل تحب الأفلام الأجنبية؟

-أنا لا أحب غيرها!!

* لماذا؟

-لأنهم أناس يتقنون عملهم.. حتى في التفاهات، فتفاهاتهم في منتهى التكامل

* ما أفضل أفلامك؟

-ليس هناك أفضل؛ لأن الأفضل بتكرار مشاهدته يفقد أفضليته ليأتي غيره، لكن هناك أفلام كثيرة ممتازة في قصتها وحبكتها وأدائها

* ما النوع المفضل لديك من الأفلام؟

-الأفلام التي أشاهدها بعقلي وليس بعيني

* مثل؟

_Fight Club وMemento

مثل تلك الأفلام لو تعرفينها

* بالطبع، ومدمنة لتلك الأفلام، وأظن أن أحدهما إن لم يكن كليهما من إخراج العبقري نولان، ويكفيه أنه صانع شخصية الجوكر في فيلم the dark knight

-أووه.. لقد أثرت إعجابي حقًا
*** ومَن أفضل ممثلين لديك؟**
-لو سألتِ أي أحد متابع لهوليود لأخبرك: الباتشينو ودي نيرو، ولكن نيكولاس كيدج له مكانة خاصة عندي، وكانت بداية معرفتي به في فيلم face off
*** هذا الفيلم إخراج جون وووه**
-نعم، المخرج الصيني الذي كان سببًا في ظهور فاندام، والذي يعشق تصوير الحمام
*** والعربي؟**
-الأفلام القديمة كلها، وأعشق أداء أحمد زكي
*** ولم هو خصيصًا؟**
-لا تجدي ممثلًا عربيًا أدى دور البواب والرئيس والوزير والطبال والدجال مثلما فعل أحمد زكي
*** أوليس في الأفلام العربية ما يثير عقلك كهوليود؟**
-نعم، وخصوصًا تلك الراقصة البولندية
*** ههههه..لا هي أرمينية**
-شاكر جدًا للإضافة
*** هل شاهدت فيلم عسكر في المعسكر لمحمد هنيدي؟**
-بالطبع، حسنًا كيف التحق بالتجنيد وهو وحيد أبيه؟!
*** فاتتني تلك الملاحظة!**
-وفيلم إسماعلية رايح جاي
*** ماذا به؟**
-في أغنيته الشهيرة يريد دشًا وموبايلًا ولم يكونوا قد اخترعوا تلك الأشياء في الستينات بعد!
*** وفاتتني أيضًا ..**
-لكن أكلمك على مشهد أحمد بدير في فيلم حين ميسرة وهو يكتب على لوحة المفاتيح فقد كان خيالًا علميًا

* ا.. أرجوك كفى، لا تدمر ذكرياتي الجميلة مع الأفلام، وحين سأشاهد أحدها سأتذكر تلك الأخطاء

-وتتذكريني؟

* هذا.. إن كنت أنساك

-هذا تحرش!

* لرفع روحك المعنوية ليس إلا

-جيد.. جيد

* هل تحب القراءة؟

-كنت

* والآن؟

-لم أعد أملك صبرًا للجلوس على كتاب

* أريد أن أعلمك الصبر

-حاولت مرة وقلت آخذ سنارة وأذهب إلى النيل لأصطاد السمك وأتعلم الصبر

* ثم؟

-بعد ربع ساعة ألقيت بالسنارة في الماء وعدت

* هههههه هذا من حظ السمك، قد تأخر الوقت؛ سأغلق الآن ونكمل غدًا

-لماذا لم تعطيني رقمك للآن؟

* لأنك للآن لم تطلبه. تصبح على خير

* **

* لو أصبحتَ رئيسًا ماذا ستفعل أول ما تفعل؟
-ما الذي دفع بسؤالٍ كهذا في خاطرك؟
* تلك التغيرات التي تمر بالبلاد؛ فأردت أن أعرف وجهة نظرك
-لن أبدأ إلا بالتعليم.. بالتعليم أستطيع أن أبني جيلًا قائدًا في الغد.. أبني جيلًا يضع وطنه في مقدمة الصفوف، أهتم بالتعليم والتربية، الطفل يظل بالمدرسة وقتًا أطول من بيته، سأهتم أول ما أهتم بالمرحلة الابتدائية.. أفضل مناهج وأفضل معلمين، سأسعى لاختيارهم من حملة الدكتوراه، معي بالطبع فريق من الخبراء، سآخذ بآرائهم، ولكن من النفع من أن يكون الطبيب قد درس في سنوات حياته التضاريس في أوروبا، أو أن يكون مدرس اللغة العربية قد درس الأشكال الدائرية.. لا بد أن يهتم كل شخص بتخصصه، ودعك ممن يقول ثقافة عامة، فما أحد يذكر ماذا درس من المواد التي يكرهها بعد خروجه من الحصة.. يظل يدرس عمره كله باللغة العربية ليتقدم لوظيفة يفضل لها إتقان اللغة الإنجليزية
* لماذا التعليم؟
-لا تجدين دولة متقدمة لا تهتم بالتعليم
* سؤال آخر.. ماذا ينقص البيوت المصرية؟
-كلمات القرآن هي ٧٧٤٣٩ كلمة
أوسط كلمة فيها هي كلمة ((وليتلطف)) ينقصنا اللطف
* هل أستطيع أن أسألك عن شيء دون أن تفهمني خطأً يا عمر؟
-بالطبع يا أنا
* مَن تلك الفتاة التي لا تترك منشورًا لك إلا وتشاركه وتكتب عليه الكثير من التعليقات
-أيتهن؟ فهُم كثر

* أنا لا أمزح
-وأنا أسألك جديًا.. عندي مئات التعليقات، فكيف أستطيع التركيز فيها كلها؟
* تلك التي اسمها: أبكي على شام الهوى
-أها .. ما بها؟
* إذن أنت تعلمها؟
-نعم..
* وما حدود تلك المعرفة؟
-معرفة عادية كأي إنسانة محترمة
* وهل تعرف كل المحترمات في صفحتك؟
-بالطبع لا.. ولكن تلك أخت سورية، وقد كلمتني بالخاص مرتين أو ثلاث
* ومَن أخبرك أنها سورية؟ هل كل مَن كتبتْ كلمتين باللهجة الشامية وأسمتْ نفسها اسمًا شاميًا تصبح سورية؟ وهي من حواري القاهرة!
-ولماذا تكذب؟
* هل أنت حقًا بهذا السذاجة؟ أم تدعيها؟
-ولماذا أكذب عليك؟ "فشل الإرسال"
* أجبني
-أقول لك لماذا أكذب عليك؟ ما الداعي لذلك؟ "فشل الإرسال"
* لا تبحث عن مهرب، ولا تتعب عقلك في اختراع كذبة جديدة
-والله أنا لا أكذب وأجيبك، ولكن الرسائل لا تصلك "فشل الإرسال"
* لا ترد.. وافعل ما يحلو لك.. سلام
-عليك اللعنة

*** أنا؟! تلعنني أنا يا عمر؟!**

-لا والله.. ألعن شبكة الاتصالات، والله لقد أرسلت لك أكثر من رسالة، ولكنها لم تصلك "فشل الإرسال"

*** حسنًا هذه آخر مرة ستراني فيها.. سأحظرك**

-أنا.. انتظري .. سأفهمك "لا تستطيع إرسال تلك الرسالة إلى هذا المستخدِم"

*** * ***

الفصل الخامس عشر

"أنا... أنا عمر، وهذا حسابي الآخر لا يعلمه أحد، أستخدمه عندما أريد التخفي أو التعليق في أماكن لا أريد فيها أن أظهر باسمي، واضطررت لاستخدامه بعد حظرك لحسابي ..أنا والله ليس بيني وبينها شيء، ولا أعرفها جيدًا، واللعنة لتلك الشبكة؛ لأني أرسلت رسائل كثيرة ولم تصلك .. أرجو أن تنظري في الرسائل الأخرى وتقرئين رسالتي.. وتحذفينني من قائمة الحظر.. أنا بانتظار رسالتك هناك في حسابي... ملاحظة.. لقد حظرتُ "أبكي على شام الهوى".

* * *

* ولماذا حظرتها؟؟

-لقد أضاع حسابي مرة أخرى يا أنا، هل تعلمين أن حسابي الآخر لا أتابع فيه أحدًا غيرك؟ فأنا أعرف كل أخبارك وتعليقاتك وإعجاباتك؛ لأنه ليس في صفحته الرئيسية غيرك

* أجب.. لماذا حظرتها ؟

-حتي لا أخسرك

* لماذا أنا من دون النساء؟!

- وأين تلك النساء؟ أنا لم يعد باستطاعتي العيش دونك.. دون الفضفضة معك.. أنا عدتُ معك مراهقًا من جديد

* وماذا يريد مني المراهق؟

-وماذا يبتغي المراهق من امرأة إلا...

* ؟!

-نقودها يا أنا

*** لكني مفلسة**
-ولهذا اخترعوا إيصالات الأمانة، إنْ كنتِ لا تثقين في فسأعطيك كلمة السر لحسابي بشرط
*** ما هو؟**
-أن تعطيني خاصتك
*** لا شكرًا لك**
لماذا تأخرت نصف ساعة في إرسال رسالتك من حسابك الآخر
-أوكنتِ في انتظاري؟
*** وماذا أفعل غير ذلك!**
-هل تعلمين أن أفضل كلمة قيلت لي من امرأة.. كانت منك؟
*** مني أنا؟**
-نعم، عندما تكلمنا من شهور كانت .. سأكون بانتظارك
*** هل تعلم أول يوم تكلمنا فيه؟**
-لا
*** أول مارس**
-الرجال لا يعبؤون بتلك التفاصيل، ليس لعدم اهتمامهم، ولكن لأن تلك طبيعتهم
*** هل هذا مبرر أنك لم تكن تحفظه**
-بالنسبة لك كان يومًا عظيمًا هذا الذي تعرفتي فيه على عمر شاكر، لكن بالنسبة لي كان يوم أحدٍ كأي أحد آخر
*** لا أسامحك على نسيانه**
-النساء تحفظ متى قابلت رجلها؟ وماذا كان يرتدي أول مرة؟ وماذا قال؟ ومتى كانت أول مرة يعترف لها بحبه؟ وما هو تاريخ ميلاد زوج أخته؟ النساء عندهن بين الأصفر والأحمر عشرات الألوان

بعشرات الأسماء.. نحن الرجال نختلف.. الألوان عندنا أبيض وأسمر وأحمر وأزرق وأصفر.. لا نحفظ أية تواريخ.. وهذا ليس معناه أننا لا نهتم، لكن عقولنا ليست بها تلك التفاصيل، ولا نستطيع فعل أكثر من شيء في نفس الوقت.. أي: عندما نشاهد كرة قدم فنحن نشاهد كرة قدم.. لا شيء أخر، بعكسكن، تتحدثين في هاتفك أثناء طهوك للطعام وابنك على كتفك

* ما هي الأشياء التي تشغل بالك؟

-هناك بعض الرسائل لا أفهم ما المقصود منها..

* مثل؟

-أن يموت أشهر مَن مثّلَ أفلامًا عن قيادة السيارات في حادث سيارة! أو أن يموت سباح ماهر بالغرق، أو أن يصاب أول مَن أدى دور سوبر مان بالشلل ولا يستطيع حتى الوقوف، أن يتم إنقاذ سيدنا موسى عليه السلام وهو في أضعف حالاته بإلقائه في الماء، ويتم هلاك فرعون وجنده وهو في قمة قوته وجبورته بإلقائه في الماء، وأن تكون جنازة الوزير السابق في يوم ماطر شديد العواصف ولا يحضر الجنازة إلا النذر القليل، وتكون جنازة صبحي من أعظم الجنازات التي رأتها القرية، وأن ترفض زوجة سليمان أن يتزوج من أرملة أخيه؛ فيموت زوجها!

ما هي الرسائل المرسلة لنا وماذا نفهم منها؟

* وماذا أيضًا؟

-هل حقًا نحن الكوكب الوحيد الذي به حياة في هذه الكواكب؟

* فلتسأل سوبر مان

-من أجل إجابتك تلك.. دون تلك الأشكال الهندسية خُلق كوكبنا على شكل بيضة

* إيحاء خبيث منك، وما هي تلك الأسئلة الأخرى
-ما هو لغز الرقم سبعة؟
* وماذا أيضًا؟
-أهم ما يشغل عقلي حاليًا.. هو ماذا ترتدين الآن؟
* هههههه عليك اللعنة! لقد وقعت على الأرض من الضحك
-هل تستطيعين مساعدتي في حل هذا اللغز؟
* لماذا ظهر المراهق الآن؟
-فلتسألي سوبر مان!
* هل حقًا ستشكل إجابتي فرقًا؟
-أجمل ما في واقع العلاقة بين اثنين هو الخيال
* كيف هذا؟
-قبل اللقاء يظل يعيش في خيالاته وسأقول وسأفعل وسأنظر في عينيها.. وبعد اللقاء وأيًا كان شكله.. لقاء مكانيًا أو هاتفيًا أو رسائليًا.. يظل يعيش بينه وبين نفسه فيما قال وماذا قالت، وكيف ضحكت؟ وأنت ربما الآن ترتدين أربع عبايات فوق بعضهم، وثلاثة إيشاربات.. ولكن دعيني أستمتع بالخيال ولو كان كذبًا وأنا رجل بينه وبين الخيال قصة عشق.. فلتجعليني أتخيلك وأنتِ تنحنين لكبريائي
* ولكني امرأة لا تنحني
_لو كان زوجك حيًا ما استطعتِ قول ذلك
* جملة في منتهى الخباثة
-ولا يفهمها إلا القليل
* عمر!
-نعم

* أريد أن أخبرك بشيء هام!
أنا صاحبة السؤال، وليست صديقتي.. زوجي مازال حيًا
-نعم؟!
* لقد كان إحساسك صادقًا.. ككل مرة
-ولماذا كذبتِ؟
* عندما واجهتني بحقيقة نفسي في أول مرة فضلت الإنكار، لا أدري لماذا!
-ثم؟
* سأصارحك بكل شيء.. أنا امرأة أشعر بفراغ كبير في حياتي، لا يملؤه زوجي، ولا أولادي، وأملأ هذا الفراغ بتلك المحادثات، كل فترة مع أحدهم، أختارهم بعناية، أختار من يستحقني.. مرة يكون شاعرًا، ومرة روائيًا، ومرة مطربًا، ومرة يكون شخصًا عاديًا.. كل ما أفعله كسر الرتابة في حياتي، أدخل القصة فتأخذ مني كيفما تأخذ.. أسبوعًا، أسبوعين، ثم أنتقل لآخر.. الكل يقع.. لا أحد يستعصي عليّ.. البداية قد تبدأ بالنكز ورَدِّهِ، أو بالتعليقات الموافقة له أو المعارضة.. المهم أن نصل إلى الخاص، ووقتها.. الأمر محسوم، لكني لم أخن زوجي فعليًا ..
-أوليست هذه خيانة؟
* نعم، لا أنكر.. لكن لا أحد يعرف حقيقتي، لا أحد رأى صوري، أقصى ما وصل إليه بعضهم هو سماع صوتي
-ثم؟
* جئتَ أنت.. لا أعرف كيف حدث، لكني سقطت معك وسقطت فيك، وأغرمت بك
-أرى أن تكتبي تلك الجملة عندك، وعندما تحتاجينها تأخذينها

نسخًا ولصقًا دون عناء
*** قل ما تشاء.. واذبحني بسكين كلماتك أكثر وأكثر، ولكن اعلم أني مَن أخبرك بحقيقتي**
-ولماذا أخبرتني الآن؟
*** لأنني أريد مساعدتك في رحيلي عنك**
-الآن.؟ بعدما أصبحتِ وطني وسكني تلقينني في العراء.. الآن ترحلين، بعدما أدمنت دفء الاتكاء عليك تلقينني مرة أخرى في صحراء وحدتي بلا ملاذ أو مأوى؟
*** عمر..**
-لا تنطقيها.. رجاءً لا تفقديني آخر اتزان لي، انتظري على الأقل لتعرفي ما نتيجة التحاليل التي أجريتها بسبب صداعي المزمن
*** أنا كلمت كل من كلمت بلساني وعقلي، وكنت أقنع نفسي.. ما دام قلبي بعيدًا فأنا لم أخن زوجي، ولكن معك قلبي أصبح حاضرًا**
-أنا.. أنت أصبحتِ أنا هل تفهمين؟
*** أنا سأحظرك تلك المرة بلا عودة.. وسأحظر حسابي الآخر**
-أنا
*** ...**
-أنا رجاءً.. لا
*** ...**
-مروة..
لا تستطيع إرسال الرسالة لهذا المستخدم

*** * ***

الفصل السادس عشر

بعد صلاة الجمعة أسير بجوار الدسوقي، متجهين إلى بيته حيث أقسم عليّ أن أتناول معه الغذاء اليوم، وأخبرني أن زوجته قد طهت المحشي خصيصًا لي.
لمَ أرفض؟ وما المانع!
مرّ أسبوع كامل على غياب مروة عني، وتداعت الأحداث بطريقة غريبة على حياتي، جل ما أتمناه الآن هو ألا تكون قد سممته وتضرب عصفورين بوعاء محشي واحد.
دلفنا إلى بيته وأدخلني إلى مائدة الطعام، هي زوجة ماهرة بلا شك، جميع أنواع المحشي، بجميع أشكال السَّلَطات، والبسلة، ولسان العصفور، واللحوم.. مائدة أفتقدها منذ فترة طويلة.
أظنها تُعرب عن شكرها لي بطريقتها الخاصة.
جاءت بعدد من الليمون ثم قطعته بالسكين، ووضعت أمامي لمونتين وأمام زوجها اثنتين.. لقد كشفت نفسها.. هي لا تريد أن تسممني أنا وزوجها.. هي تريد تسميمي وحدي حتي تدفن سرها معي.
لم يهتم الدسوقي عندما أبدلت الليمون بيني وبينه وأنا أنظر لرد فعل زوجته، ولكنها لم تهتم، لقد ظلمتها،
أو أنها سممت شيئًا آخر.
كانت تجلس على المائدة معنا دون أن تأكل بسبب نقابها، ولكنها كانت تهتم بطعام أبنائها، إذن.. فالأكل ليس مسممًا، فلأهنأ بوجبتي ولأبعد عني شيطاني _الأنا_ حاليًا، فلربما لا تتكرر هذه الوجبة قريبًا.
أشار الدسوقي إلى الزيتون أمامي وهو يقول فخورًا: هذا من صنع زوجتي..
نظرت إليها وأنا أهز رأسي مشجعًا: هي ماهرة بلا شك، وأخبار ابنك المريض ؟
-الحمد لله ..كما القرد ها هو

* أيُّهم، فإن البقر تشابه علينا
نظرت إلينا زوجته وهي تقول: قرد وبقر؟
-قرد؟؟ لماذا تنعته بالقرد يا دسوقي؟ ولكن أصدقك.. هو يشبه القرد حقًا، ولكنه لا يشبهك.. ترى يشبه من؟؟
-ألن تتزوج مرة أخرى يا صديقي لتجد من تطهو لك وتغسل لك؟
* أم بيومي تفعل ذلك كله
وقبل أن يعقب أردفت قائلًا: ولقد سبقتَني .. فأنا كنت على وشك إخبارك شيئًا مهمًا..
تركزت كل العيون على فمي المشغول بالانقضاض على صدر دجاجة مسكينة:
نعم .. سأتزوج
-أخيرًا... ومن تكن سعيدة الحظ تلك يا صديقي؟
* والدة تلميذي طارق سليمان فأظنها قد انقضت عدتها
-المبتور ذراعها ؟
* نعم
-لماذا هي؟
* لأسباب كثيرة أشرحها لك مستقبلًا.. ولكن دعني أنهي حواري مع تلك الدجاجة.
وكنت أشعر بعين زوجته تحدق فيّ وأنا آكل من الزيتون المخلل الموضوع أمامي، نعم.. لم يأكل أحد من الزيتون إلا أنا.. لقد سممتني أخيرًا

* * *

كان الدسوقي مازال مصدومًا من أثر الخبر الصاعق الذي ألقيته على مسامعه هو زوجته ..كان يمنع نفسه من سؤالي عن أسبابي ودوافعي الحقيقية وهو يسير بجواري لا يعلم أين..
* سأجيبك حتى لا تنظر لي تلك النظرة البلهاء
-أتمنى
* من أجل مستقبل طارق ولدها
-من السهل أن تساعدها دون الزواج منها، هي حتى لن تستطيع الاهتمام بشؤونك بوضعها هذا
* ستهتم بي أم بيومي
-فلتتزوج أم بيومي إذن
* هل تظنها ستوافق؟
-يا رجل.. أنت ستتسبب في إصابتي بالشلل
* دعك منها الآن، أريد أن أسالك عن شيء
-غير الزواج من تلك المرأة
* نعم
-ماذا أيضًا؟
* هل سمعت أني فعلت شيئًا بالأمس؟
_نعم القرية كلها عرفت.. لقد كان هناك أحد الصبيان بجوار شباكك وأخذ في الصفير على صديق له فأعصابك لم تحتمل؛ فنزلت ليلًا وذهبت إلى شباكهم وأخذتَ في الصفير بصفارة كبيرة، لا أعلم من أين أتيت بها، إلى أن جاء إليك والده وسألك في دهشة: ماذا تفعل؟ فأجبتَه أنت: أنا لم أسأل ابنك وهو يصفر تحت شباكي ماذا يفعل! ثم انصرفتَ بعدها.
-لماذا فعلت ذلك يا صديقي؟
كنا قد وصلنا إلى منزل المهندس الزراعي محمد رضا، فطرقت بابه وأنا أقول للدسوقي: ببساطة.. لقد فقدت السيطرة على عقلي، في تلك اللحظة فتح لنا محمد رضا بابه، وقد علت وجهه الدهشة التي

حاول إخفاءها وهو يقول: تفضلا.. تفضلا
* أعتذر يا باشمهندس على الزيارة المفاجئة
-لا تقل ذلك يا أستاذ عمر، إنه لشرف كبير.
ما أن أخذت مكاني في مقعدي حتى أخرجت من جيبي مبلغًا من النقود وقلت له: يا باشمهندس دون مقدمات لا أجيدها ولا احبها أنا أريد أن أشتري ثلاثمائة نخلة نضعها على جانبي الطريق في مدخل قريتنا، أنت المسؤول الأول والأخير عنهم في الاهتمام بهم، وبما يحتاجونه من ري وأسمدة وتلقيح، وليس هناك من يستطيع عمل ذلك مثلك
-وماذا نفعل بهم يا أستاذ عمر؟
* سيكونون تحت تصرفك أنت، وليس لي شأن بهم، كل عام تبيع محصولهم لأحد التجار، ثم تأخذ المبلغ وتساعد في زواج أحد البنات غير القادرات بالقرية.. هذا المبلغ كل عام للزواج وليس لشيء آخر.. لنساعد في عفة بناتنا!!
-ونعم الفكرة يا أستاذ عمر.. فكرة ذكية للغاية..
* إذا كنت تريد أن تأخذ نظير عملك مِن إنتاجهم فلا بأس
-لا تقل هذا، فوقتي ورعايتي لهم مساعدة لك في هذا المشروع الخيري
* كنت أعلم ذلك، ولذلك أتيتك أنت خصيصًا
الموضوع كله ملك لك.. وليس لي شأن به .. أنا أثق فيك وفي رجاحة عقلك.. السلام عليكم
-انتظر الشاي!
* مرة أخرى إن شاء الله

* * *

الفصل السابع عشر

*** عمر**

-أخـــيـــرًا يا "أنا".. طال انتظارك هذه المرة

*** قلت لك إني لن أعود، ولكني شعرت بأنك تحتاجني**

-أكثر مما تتوقعين!

*** كيف حالك؟**

-وحيدًا كعادتي

*** وما هذا الفيديو الذي نشرته عندك؟**

-الكثير من الأصدقاء والمتابعين يريدون أن يروني فامتثلتُ لهم أخيرًا

*** وعندما تبدأ بتصوير نفسك تبدأ بفيديو بجوار قبرك!**

-ألسنا سنموت في النهاية جميعًا؟

*** وما تلك الرُّخامة على القبر؟**

-هي باسمي، ولكن مازال التاريخ مجهولًا

*** هل أصبحت درويشًا**

-لا تنكري أن الفيديو رائع

*** لا، لم يعجبني.. كان كئيبًا أكثر مما يجب**

-هل هذا ما أعادك؟

*** وأشياء أخرى**

ما جديدك؟

-لا شيء، غير أني تزوجت مرة أخرى؟

*** نعم؟؟ تزوجت متى! وكيف؟**

-سأحكي لك كل شيء لاحقًا

*** لا .. أريد أن أعرف الآن..**

-أعدك أن تكوني الوحيدة التي أحكي لها

*** وأنا أريد أن أصارحك بشيء**
_خيرًا؟
*** حاولت أن أنساك.. حاولت أن أبعدك عن قلبي.. حاولت أن أستبدلك**
-تستبدليني؟
*** نعم.. كان هناك أحد أصدقائك منذ فترة وأنا أتمنى أن أوقعه في شباكي ..كان صيدًا ثمينًا لا يفارق خيالي**
-ثم؟
*** ظننت أنني لو تمكنت منه لربما نسيتك، وأقنعت قلبي أنك مثلك مثل الآخرين**
ثم.. بعدما فكرت أن أبدًا معه لم أكمل.. لم أستطع أن أنتزعك من قلبي..
-كمال اليماني؟
*** كيف عرفت؟!**
-قلتِ صديقي؛ فذهبت إلى منشوراتك فوجدت منشورًا تطلبين فيه الدعاء لابنك المريض، وهو لن يتأخر عن منشور كهذا، ثم هو مَن هو في الرومانسيات، وخاصةً تلك الموسومة بـ"رسائل القلب" التي يكتبها، وأنت لا تصطادين غير ما تستحق
*** ذكاؤك أحيانًا يخيفني!**
-وإلى أين وصلتِ معه؟
*** قلت لك لم أحاول، فلم يكن قلبي ولا عقلي حاضرين**
-وبماذا فكرتِ أن تبدئي مع فريسة أخرى؟
*** وما الفارق؟**
-أريد أن أعرف

* لا يهم
-كما تشائين.. ولكن نصيحة لك، عندما تبدئين مع أحدهم دعي فرصة لأنْ يشطح بخياله.. على سبيل المثال: كنت نائمة.. أو إني نائمة.. أو عفوًا كنت آخذ حمّامي الدافئ..
* عندما تنتهي من إساءاتك أخبرني
-قد انتهيت
* مبارك زواجك
-شكرًا لك
* ربما يكرمك الله هذه المرة بالولد
-لا أظن
* كن متفائلًا
-لأسباب طبية بحتة لا يمكن أن يحدث حَمْلٌ
* إن الطب في هذه الجزئية قد تقدم للغاية فلماذا لا تجرب؟
-لكي أذهب إلى طبيب فاشل يريد أن تنجح اختباراته؛ فيضع في رحم زوجتي من حيواناته المنوية وأنا لا أعلم، ويأتي بعد أسابيع ويخبرني بنجاح التلقيح!
* دع وساوسك جانبًا، فلا أحد يفعل ذلك، وتستطيع التأكد بعدها بتحليل الدي إن إيه
-نعم .. في معمل لن يخبرني الحقيقة حتى لا أتعذَّب، أو ظنًّا منه أنني ربما أقتل زوجتي
* والحل؟؟
-هذا قضاء الله وقدره
* منذ متى هذا اليقين؟
-أنا !

* نعم
-أريد أن أراكِ
* كيف؟
-فلترسلي لي صورتك
* وهل ستصدق أنها لي؟
-نعم
* ولماذا الآن..؟ وأنت لم تطلبها أبدًا مما أثار فضولي!
-ربما لأني رجل عندما يتذكر الجنس يتذكر عجزَه، أو ربما لأنني على يقين بأنــ.. بأنك لستِ جميلة، وإلا ما لجأتِ إلى عالم افتراضي هائمة فيه، تبحثين عن مشاعر زائفة
* هل تستفزني لأرسل لك صورتي؟ لستُ صغيرة على ذلك
-لا بالطبع، ولكني أظن أن تلك هي الحقيقة
* حسنًا.. لقد نجحتَ في استفزازي حقًا.. انتظر قليلًا
-لن تفيد كل أدوات الزينة في إصلاحك يا "أنا"
* عَلِّمْ نفسك الصبرَ وانتظر نصف دقيقة
-هل تعلمين أن الفراعنة كانوا يُضَحُّون كل عام بأجمل فتاة بإلقائها في النيل.. وتركوا لنا القبيحات أمثالك!
* حسنًا..
انظر.. إذن ما رأيك؟
-هذه أنتِ حقًا؟
* نعم، وقد أمسكت بتلك الورقة وكتب لك عليها أخطأتَ هذه المرة يا "ناش"
-هل حقًا أنتِ؟!
* أنت تثير غروري بالفعل

-هذا مِن حقك.. صدقًا لم أتوقعك هكذا.. نادرًا ما يملك هذا العقل وجهًا وجسدًا جميليْن هكذا

* أراك قد تأثرت

-وزاد من تأثري .. أنَّ هذه الصورة لي وليست لأحد غيري

* ماذا تقصد؟

-أقصد بأن شخصية ذكية مثلك عندها أكثر من صورة، واحدة وهي تبكي، وأخرى وهي مثيرة، وهكذا.. وعلى حسب الحالة التي تريد أن توهم بها الشخص أمامها، فتختار له الصورة المحفوظة سابقًا، أما هذه الصورة فهي لي وحدي

* لستُ بهذا السوء

-أعلم

* فلماذا إذن تصر على إيذائي بكلماتك؟

-قالوا لي بأنني أجيد كل شيء إلا التعبير عن مشاعري

* صدقوا

-هل تعلمين ما أفضل ما في الصورة أيضًا؟

* ماذا؟

-إن ملابسك خفيفة وتظهر جمالك على حقيقته

* وهل هناك جمال كاذب؟

-سيدتي، إن معظم النساء كمرآة السيارة الجانبية .. الأحجام الظاهرة لا تبدو حقيقية

* فاحترس حتى لا أصدمك

-وأنا لا أتقن قيادة السيارات.. هل تعلمين أن كل قصص الحب الخالدة لابد أن تنتهي بموت أحدهما؟

* ليس شرطًا

-ربما في الغالب .. أريد منكِ خدمة
* اؤمرني
-أريدك بجوار الهاتف في الأيام القليلة القادمة دائمًا .. فأنا أريدك في أمرٍ جلل، وعندما أحتاجك أريد أن أجدك وقتها
* عامةً.. أنا هاتفي لا يفارقني أبدًا
-حسنًا

***

الفصل الثامن عشر

في سيارة الأجرة المتجهة إلى المدينة، أخرج رأسي من النافذة المجاورة لي وأغمض عيني ليصدمني الهواء بشدة، وأريد أن أطلب من السائق أن يسير بسرعته القصوى ليغسلني هذا الهواء البارد، وأتابع الأشجار على جانب الطريق.
كل شجرة منها كانت شاهدة على أحداث وقصص على مر السنين قبل أن أدخل رأسي مرة أخرى بداخل السيارة ناظرًا إلى تلك الكآبة على وجه البشر.
متى تحول وجه المصريين الضاحك دائمًا إلى هذا الوجه الحزين المليء بالتجاعيد؟
كيف انقلبت طبيعة هذا الشعب؟!
من السبب ؟ وكيف ومتى؟
اللعنة على الفقر.. ألف لعنة!!
اللعنة على الجوع والظلم والقهر والخوف
اللعنة على المسؤوليات التي تثقل كاهل الآباء، من دروس خصوصية، وطعام وملابس ودواء..
"النقود ليست كل شيء" قائل هذه العبارة إما ثريٌّ لا يريد لأحد الثراء غيره، أو ليبعد الأنظار عنه، أو فقير مُعدم يريد أن يقنع نفسه عند النوم.
يقولون "النقود تشتري الدواء ولكن لا تشتري الشفاء"
أيها الأحمق.. على الأقل أخذت بالأسباب، فما بالك بمن لا يجد الدواء؟ أو مريض لا يجد ثمن الحقنة؟ نعم هناك ثري مريض لكنه أخذ دواءه ومهدئه واستغرق في النوم.
يقولون "النقود قد تستطيع أن تشتري رغيفًا، لكن لا تشتري الشبع"

أيها الأحمق.. وهل مَن لا يجد الرغيف أصلا يأمل في الشبع؟ تلك المسكنات التي ربما لا يطلقها ثري أو فقير ولربما تطلقها بعض الحكومات التي تريد إقناع شعبها بالفقر، وتدريجيًا أصبح البؤس عنوان تلك الوجوه.

أركب سيارة أجرة وأنظر إلى الوجوه، أو الأحاديث الجانبية.. لم يعد أحد يضحك!

غير هذا الشاب الذي يفتعل الدعابات افتعالًا ليلفت انتباه تلك الحسناء بالمقعد خلفه، وهو بائس آخر، فلو لم يكن بائسًا حقًا لفكَّر في الزواج، ولكن ربما أخبروه بأن النقود ربما تشتري لك الزوجة ولكن لا تشتري لك سماحها بأن تسهر مع أصدقائك!

وسائق سيارة الأجرة هو الأشد بؤسًا، فيترك المقعد بجواره إلى آخر لحظة آملًا أن تأتي إحدى الحسناوات لتجلس بجواره.. ولا أدري مَن أوهم هذا البائس أن لو جلست بجواره إحدى الحسناوات فستنهال عليه بالقبلات!

ومن مظاهر بؤسه.. تلك الأغنيات الكئيبة التي يغنيها هذا المطرب الذي تركته حبيبته لتذهب إلى صديقه الذي اقترض منه مالًا ثم هرب مع أخته تاركًا حبيبته تطرق بابه مرة أخرى، ولكن المطرب لم يعد يريد شيئًا من الدنيا إلا أن يبكي في آذاننا.

هذا المطرب البائس في سيارة هذا السائق وبجانب هؤلاء البؤساء.. ثم حدثني أكثر أن الشعب المصري مرح بطبعه!

أيقظني من شرودي أحد الركاب وهو يعطيني النقود، وعلي وجهه ابتسامة مشجعة: لا لا لا.. لن أتبرع بجمع الأجرة؛ لأن سيارة الأجرة عند الفلاحين هي وسيلة تواصل اجتماعي أكثر منها تواصل جغرافي.

أحمد يدفع أجرته هو ومحمد، وإبراهيم يدفع أجرة منار ابنة خالته، وأخيرًا تجد الأجرة ناقصة!

كيف بعد هذا الكرم نجد عجزًا في النقود؟

مِن آخر مقعد تجد صوتًا ينادي على منار : منار.. لقد دفعتُ لكِ ومنار أصبحت بين قبول كرم هذا وكرم آخر، لابد أن تحرج أحدهما أمام كل ركاب القرية، وبعد نزولهم ستنتشر القصة لنعرف أن ابنة فلان فضلت ابن "فلانة" عن ابن "فلان"، منار ما تزال في حيرتها.

وهناك في الركن الآخر ليلى، ولسبب لا أعلمه لا يتشاجر عليها أحد ليتحمل مسؤولية أجرتها.

الركاب في قريتنا يشتكون غلاء الأجرة، والسائقون يشتكون رخصها، وربما أكون أنا السبب في النهاية.

ما أن أركب السيارة إلا وألتزم مقعدي لأجد إحدى قريبًاتي تناديني بلهجة معاتبة: أستاذ عمر .. هاك أجرتي..

صدقًا لم أركِ.

وإذا ركبت وتفحصت وجوه الراكبين يتبرع أحدهم لمساعدتي قائلًا: هل تبحث عن شخص معين يا أ. عمر؟

-نعم، أبحث عن امرأةٍ تصبح زوجة لي!!

ولو بيني وبين السائق خصومة.. فهل المفترض أن أركب معه؟ أو لا أركب وأنتظر السيارة الأخرى؟

وهل لو ركبت سيحرجني أمام أهل القرية ويعتبرني متطفلًا؟ أم سيعتبر هذا الموقف مني ملاطفة له؟

وفرضًا.. لم أركب هل سيعتبرني إنسانًا جيدًا لأنني تحاشيته وابتعدت عن محاولة الاحتكاك به؟

أم سيقول في نفسه فليذهب وهو وأجرته إلى الجحيم؟

حتي من يملك سيارته الخاصة يدخل في متاهات هو الآخر، في طريقك لابد أن تقف لأي شخص من القرية وإلا فأنت مغرور وكاره ومكروه، وحتى عندما تأخذ في طريقك كل من تعرفه فسيغضب منك سائقو الأجرة؛ لأنك تقلل رزقهم.. أتمنى قريبًا أن أشتري مركبًا خاصًا بي.

نظرت إلى الرجل صاحب الابتسامة الذي يناولني أجرته: نعم، أنا عبقري رياضيات لكن ليس لدرجة أن أجمع الأجرة.

* * *

أطرق باب عمي
منذ ما يقرب من العامين لم أدخل بيته، تفتح لي زوجة عمي، نظرات الدهشة والصدمة والحذر والاستفسار تعلو وجهها، ابتسمتُ في هدوء وأنا أقول لها لإزالة توترها: كيف حالك يا زوجة عمي؟
استعادت رباطة جأشها في صعوبة، وحاولت جاهدة وهي تقول:
بخير .. تفضل يا بني.
"السلام عليكم"
نطقتها بصوت عالٍ أثناء دخولي.
هذا هو البيت الذي تربيت فيه.. هنا أكلتُ، هنا وقعت وكسرت إحدى أسناني، وهنا نمت، هنا تشاجرت مع ابن عمي، وهنا لعبنا..
سلمتُ على الجميع
وأين عمي؟
أشارت زوجة عمي إلى حجرته: بغرفته .. مريض قليلًا
ثم سبقتني لتفتح الباب على عمي لأراه نائمًا شاحب الوجه، بقلق حقيقي استغربته أنا شخصيًا قبل الجميع: ما بك عمي؟
حاول النهوض من على سريره إلا أنني كنت أسرع منه لأمنعه، فابتسم وهو يقول: لا شيء يا بني.. غير أنها النهاية قد أوشكت.
ماذا يؤلمك عمي؟ ما خطبك.. أخبرني بالله عليك، وسأذهب بك إلى أفضل طبيب في مصر كلها؟
ربت على يدي: سلمك الله يا بني
في نظرة معاتبة: لمَ منعت نفسك كل تلك الفترة؟
*** ربما منعًا لإحراج أحدنا يا عمي**
-مخطئ في تقديراتك يا عمر.. أنت تفهم في كل شيء .. إلا المشاعر يا بني.. أنت ابننا قبل أن تكون زوج ابنتنا.. ونورا أختك

قبل أن تصبح زوجتك، والآن عادت لتصبح أختك ومهما حدث بين الابن وعائلته يظلُّون عائلة.
*** أعلم يا عمي.. وأعلم أيضًا موقفك الرافض للطلاق.**
نظر عمي إلى زوجته نظرةً فهمتُها جيدًا قبل أن يقول:
فليسامح الله من كان السبب
*** المهم الآن يا عمي هو سعادة ابنة عمي.**
"كيف حالك يا عمر"
اخترقت الجملة قلبي قبل أذني، والتفت إلى ابنة عمي التي تلتقط أنفاسها بصعوبة وكأنها أتت تهرول عندما أخبرها أحدهم بوجودي
-أنا بخير يا زو.. يا ابنة عمي، وكيف حال الصغير؟
ترفعه لتجعلني أراه وهي تقول لي: فيه الكثير منك.. لست أتخيل ذلك، ولكن الجميع يؤكد ذلك!
أبتلع ريقي في صعوبة وأنا أنظر إليه
*** أعطِ عمر لخاله ليسلم عليه**
أنظر إلى عمي في دهشة حقيقية قبل أن ألتفت إلى ابنة عمي: هل أسميته عمر؟
يبتسم عمي ابتسامةً أشعر بها من ظهري وهو يقول: نعم عمر.. ولكن على اسمي وليس اسمك.
أحمل الطفل، وأقَبِّله في جبينه، وأقول دون أن أنظر إلى عمي: أنا وهو على اسمك يا عمي، إنه حقًا يشبهني!!
لم تكن ابنة عمي تدعي ذلك
-اللهم بارك
قبل أن أعطيه لابنة عمي مرة أخرى، وأسألها في فضول: وهل وافق زوجك على الاسم؟

تمط شفتيها في امتعاض وكأنما أغضبها ذِكْرُه: ولماذا يعترض؟! ابنة عمي.. ليست سعيدة!!
رفعت عيني إلى زوجة عمي التي هربت بعينيها مني، ها هي ابنتك بعد طلاقنا مازالت لم تجد السعادة.
الكثير من الأمهات يفسدن من حيث يريدن الصلاح.
أشار عمي لهم جميعًا بالخروج من الغرفة قبل أن يأمرهم بتجهيز الغذاء، ولم يعطني فرصة الرفض،
وأشار إلى المقعد بجوار سريره إشارة أن أجلس
*** أريد أن أخبرك بشيء قبل أن أموت**
-لا تقل ذلك يا عمي
*** دعك من تلك المجاملات السخيفة .. فأنت لا تجيدها.. يا بني أنا مثلك لم أكن أجيد يومًا المجاملات.. لا أجيد إظهار مشاعري.. مثلك تمامًا، أنا لم أقصر في تربيتك أبدًا، ولم أفرق بينك وبين أولادي**
-أعلم يا عم..
قاطعني بإشارة من يده التي ترتعش، وقد لاحظت تلك الارتعاشة لأول مرة:
لكني قصرت في الحنان، عاملتك مثل أولادي.. بجفاء.. بصرامة.. هكذا معظم الآباء، أنا لم أحتضنك يومًا، أو أركبتك فوق ظهري، ولكني لم أفعل هذا مع أيٍّ من أبنائي، هذه طبيعتي.. وطبيعتك أيضًا، لم تكن ستفعل هذا مع أيّ من أبنائك، لكن زوجتي كانت تدلل أبناءها، حتى وإن كان من ورائك أو أمامك، وهذا ما ظلمناك فيه.. فسامحني يا بني!
اغرورقت عيناي بالدموع، نعم أنا مخطئ في حق عمي، عمي لم يفرق بيني يومًا وبين أبنائه، رباني تمامًا كابن له، وحفظ لي مالي

وبيتي وأرضي، وزوجني أغلى ما عنده، لماذا لم أحسبها قبلًا هكذا؟

أخطأت في حساب معادلتك معي يا عمي فلتسامحني.

عمي علَّمني وأصبحت مدرسًا، وهناك مَن هم بين أيدي آبائهم وأمهاتهم ولم يتعلموا

-عمّ، أنا لست أسامحك.. بل أشكرك، فلمْ تظلمني لأسامحك

* لا.. بني ربما لم تقلها ولكنك شعرتها منذ صغرك، وربما تلك المشاعر أثَّرتْ فيك كبيرًا.

أمسكت يده، وشعرت برعشتها بين يدي، وانحنيت لأقبِّل يده وأنا أقول له: وأنت سامحني فلمْ أقبّل يدك من قبل.

قبل أن أقترب من أذنه لأهمس له ببعض الكلمات، لينظر إليّ عمي في دهشة قبل أن يبكي، وعلا صوت بكائه؛ ليأتي كلُّ مَن في البيت وسط دهشتهم الكبيرة مِن رؤيتهم عمي وهو يحتضن رأسي ويبكي كلانا كالأطفال.

***

الفصل التاسع عشر

أنا الدسوقي عطية.. ذلك المواطن المصري المطحون، دورة حياتي لا تختلف كثيرًا عن دورة حياة البلهارسيا .. مثل أيّ موظف مصري، يذهب إلى وظيفته نهارًا ثم يعود لينام ساعتين أو ثلاث عصرًا ثم يستيقظ ليكمل باقي يومه على المقهى مع عمر شاكر.

حياتي أبسط ما يكون، موظف يعرف كم دخله.. وكم مصروفاته، الباقي أدّخره، ليست عملية حسابية معقدة، زوجتي هي ميرفت التي حاولت سرقتي.. ثم سامحتها!

أنا لستُ رجلًا ضعيف الشخصية، أو ظلًا لكلمة زوجتي، ولكنني أختار دومًا الحلَّ السلمي والأهدأ، لا أريد افتعال مشكلة مع امرأة أقل مشكلة تحدث معها تجعل أيامنا وليالينا كأيام مجموعة جنود في نفقٍ في أرض الأعداء وتحت حصارهم وضرباتهم الجوية والمدفعية.

أنا لا أحب الحروب، أركن دائمًا إلى المعاهدات ومائدة المفاوضات، ولا يعنيني أن أخسر في كل مرة جزءًا من ممتلكاتي، فشعار الأرض مقابل السلام يمثلني.

الآن أجلس على المقهى وحيدًا كعادتي في الأيام القليلة الماضية، حيث لا يأتي عمر إلا متأخرًا.. أصبح يسافر المدينة يوميًا؛ لأنه كما قال لي سيبدأ في الدراسة ثانية، يريد أن يصبح أستاذًا في الجامعة.

يدق هاتفي برقم عمر شاكر، وكان قد هاتفني منذ قليل يسأل عن عنوان في المدينة، أظنه مازال لا يستطيع الوصول إليه

-نعم يا صديقي

* السلام عليكم، هل تعلم صاحب هذا الهاتف؟

انتبهت مع هذا الصوت الغريب وأنا أقول: نعم، إنه للأستاذ عمر شاكر صديقي أين وجدته؟

* لقد اتصلنا على آخر رقم وجدناه في قائمة المكالمات الصادرة، البقاء لله.. صاحب هذا الهاتف مات في حادث سيارة، ونحن الآن في انتظار سيارة الإسعاف

-نعم؟ ماذا تقول؟! أين أنت؟

أغلق الرجلُ الهاتفَ في وجهي؛ نهضت في عُنف مما أدى إلى انقلاب مائدتي بما كان عليها من أكواب، ولم أعبأ بعمّ محسن القادم إليّ.

أعدت اتصالي مرات ومرات بلا جدوى

نظرت إلى عم محسن: أحدهم يخبرني من هاتف الأستاذ عمر أنه مات في حادث!

ماذا؟ من هذا الشخص؟!

-لا أعلم

ربما مزحة ثقيلة من لص أحمق، وقع في يده الهاتف

-ربما

وماذا ستفعل؟

-سأذهب إلى استقبال المستشفى وسأسأل.

وغادرت مهرولًا إلى موقف سيارات الأجرة

* * *

نعم..
لقد مات عمر شاكر
نعم، الخبر حقيقة!!
مات بعد أن تزوج من أم طارق سليمان
مات قبل أن يرى ثمار أشجار النخيل التي اشتراها
أنهيتُ أوراق الدفن والتصاريح سريعًا بعدما احتجت مساعدة من الضابط صديق الأستاذ عمر، كان قد أخبرني بذلك في حال احتجت شيئًا أن ألجأ إليه، وقد فعلت.
وأخذنا الجثة، أنا وبعض الأهالي ممن حضروا بعدما أوصلت الخبر للقرية، أحضرنا سيارة نقل الموتى، وكان الرجل المسؤول عن ثلاجة الموتى أخبرنا بأنه قد تم غسله وتكفينه من فاعلي الخير بالجمعية الشرعية.
أخذت بطاقته وبعض الأوراق في محفظته، ولم نعثر على هاتفه أو أية نقود، لقد تبرع بعض المواطنين وقت الحادث بالاتصال بالإسعاف وحمل المصابين والموتى، وتبرع آخرون بسرقتهم!
صلينا عليه الجنازة، وكانت جنازة عادية، لم تكن بالكبيرة، فالكثير يذهب للجنازات في القرى مجاملة، وعمر شاكر ليس له أحد يردّ المجاملة.
دفنَّاه وانصرفنا دون أن يبكي أحدٌ عليه..
ربما بكته ابنة عمه، لكنني لم أرها، وربما لم تبكِ وكتمت دموعها خوفًا من زوجها، وربما لم تبك؛ لأنها ليس لديها رغبة في البكاء.. لم يبك أحد، كما كان يتوقع عمر شاكر تمامًا.
ربما يحزن عليه البعض، ولكن لن يصل أحد منهم لحد البكاء عليه، ولم يقف أحد لأخذ العزاء فيه؛ فعمه مريض طريح الفراش، أتوا به محمولًا ليودع ابن أخيه، عدت إلى بيتي منهكًا حزينًا، وكانت صدمتي شديدة عندما وجدت أن الشخص الذي رأيته يبكيه كان زوجتي التي ارتدت السواد، وكانت تبكيه بحرقة وصدق ربما لا تبكيني هكذا.

الفصل العشرون

-أنا؟

* ....

-أنا

* من أنت؟

-أنا عمر

* عمر من؟ أنت اللص الذي سرق هاتفه، أليس كذلك؟

-وكيف يناديك اللص بـ "أنا"؟

* لأنك قرأت رسائل صاحبه -رحمه الله-

-إذن، فقد أصابك الوسواس أنت الأخرى!

* أحب أن أخبرك أن عمر صاحب الهاتف قد مات

* انتظري.. أنا عمر، أمْ أحضر لك أبكي على شام الهوى لتثبت لك؟

* عمر شاكر قد دفناه

-إذا كنت تستفزينني لأفتح لكِ الكاميرا فلن أفعل قبل تحويل ٣٠٠ جنيه رصيد.. أيتها الحمقاء، استخدمي ذكاءك واربطي الأحداث سويًا وسوف تفهمين

* أفهم ماذا؟

سوف أحكي..

* **

سأموت في خلال أسابيع قليلة..
اكتشفت من الفحوصات التي أجريتها بسبب هذا الصداع الذي كان يدق جوانب رأسي بأن حالتي متأخرة، سأموت وينتهي أثري وذكري، لن يتذكرني أحد بعد أيام من دفني، لن يقف ابن أو أخ لي في عزائي، وها هي مروة قد وضعتني في قائمة البلوك.
لابد أن أصل إليها إن لم ترفع عني البلوك لأودعها، ولكن أولًا سأعمل على تنفيذ بعض الأشياء التي ستخلد اسمي مثل موضوع شجر النخيل، قد آن الأوان لتنفيذه، والمشروع الآخر هو زواجي من أُمّ طارق سليمان؛ لترث معاشي وبيتي، وتستطيع إكمال تعليم طارق، وأيضًا هذا الفيديو سيفيد كثيرًا.
لابد أن أستحضر نية الصدقة الجارية حتى لا أفقد ثواب تلك الأعمال، وأخيرًا تلك الحركة التي لن تجعل القرية تنساني أبدًا وربما القرى المجاورة.

* * *

لابد أن أستغل موتي الاستغلالَ الأمثل، لقد أتتني الفرصة على طبق من ذهب، لكن لابد أولًا لكي تكتمل خطتي أن أنتظر حادثًا به أكثر عدد من حالات الوفيات، كتلك الحادثة التي حدثت بقريتنا، والتي قال وقتها الدسوقي إنهم كانوا لا يعرفون الجثث من بعضها.
كنت أسافر يوميًا للمدينة، وأخبرت الدسوقي أنني أنوي الدراسة ثانية، وكنت أنتظر أمام المستشفيات آملًا في قدوم حالات وفيات كثيرة لأنفذ مخططي.
وتعارفت على عامل الثلاجة، واتفقت معه على الخطة بعدما أعطيته مبلغ عشرة آلاف جنيهًا كان لا يستطيع الرفض أمام هذا الإغراء الكبير، وأخذت عليه شيكًا بضعف المبلغ، وأخبرته بأنه لو أخلَّ باتفاقه سأسجنه، أما لو نفذ الاتفاق فسأكون ميتًا وينعم هو بالمبلغ.
وجاءت اللحظة الحاسمة، إحدى سيارات الأجرة اصطدمت بأخرى، وكان فوقها عبوات بنزين لإيصالهم لرجل يتاجر فيهم وهُنا حدث المتوقع.. واشتعلت السيارتان، وتفحمت الجثث.
وجاءت كاحتمالات أمامي وأبدلنا إحدى البطاقات غير المحترقة لجثة ببطاقتي، وهُنا.. أصبحتُ ميتًا على الورق. والجثة المحترقة فليأت أهلها للبحث عنها واستخراج أوراقها.
ثم اتصل عامل الثلاجة بالدسوقي، وجاء بي، ووضعني بالداخل، وألبسني كنفني بعد وضع هاتفي معي وتلك الأقراص السامة أن أنام ليلًا بهذا الوضع، فلم أشعر بأية تغيير، وترك لي بعض الثقوب المخبأة كي لا أختنق.
وأتوا ليحملوني، وسارت السيارة للمسجد بقريتي، الآن سأنتظر في المسجد رغمًا عني، لن أستطيع الخروج فور الانتهاء من الصلاة، سأخرج بإرادتهم هم.

وأخيرًا.. انتهت الخطبة التي تبرع الإمام ليقولها، وهي فرصة سانحة له لإبراز مواهبه في العبث بقواعد النحو والصرف..
وانتهت الصلاة.
وحملوني إلى قبري، وها هُم يخرجونني من النعش ليضعوني في قبري..
انتبه أيها الأحمق.. أين تذهب يدُك؟!
أكتم أنفاسي حتى لا يكتشفني أحد، يغلقون الباب، وحدي كعادتي، ولكن هذه المرة مع الكثير من العناكب.
أغلقوا القبر تمامًا وانصرفوا..
رويدًا رويدًا أبدأ في لملمة شتات عقلي.. أحاول ألا أجزع من الصدمة، أتحسس بجواري علَّني أجد ما أبحث عنه.. وما زالت عياني مغمضة، أفتح الكيس بحذر .. وأضع يدي بداخله وأُخرج موبايلي وأضغط زر الطاقة، تمر الثواني ثقيلة إلى أن أسمع موسيقى بدء التشغيل.
الآن أفتح عيني مركِّزًا كل حواسي على شاشة الموبايل، لا ألتفت يمينًا أو يسارًا، أنهض من رقدتي.. أتحسس طريقي في رفق بالغ لأجد الجدار، وأسند ظهري عليه، وها هي إشارة النت قوية، أفتح رسائلي وأبعث إليها رسالة؛ لأكمل معها حديثي.. وعلي وجهي ابتسامة.
ثوان قبل أن يأتيني الرد.. وهنا أضع محتويات الكيس في فمي.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

*** عمر؟**

-نعم يا أنا.. عمر بشحمه ولحمه مؤقتًا

*** أنا ما زلت غير مستوعبة!**

-صدمة كبيرة.. أعلم

*** فلتأخذ أنت نصيبك من الصدمات.. هل تعلم مَن هي مروة آدم في الحقيقة؟**

-؟؟

*** ميرفت، زوجة صديقك الدسوقي!**

****

ما أخبار ابنك المريض يا دسوقي؟!
فذهبت إلى منشوراتك فوجدت منشورًا تطلبين فيه الدعاء لابنك المريض، وهو لن يتأخر عن منشور كهذا
أنا أقصى ما أفعله أن أحادث أحدهم هاتفيًا.. لقد ضاع مني هاتفي وبه تسجيل هاتفي..
الدسوقي إذن، فهو نسبة إلى دسوق
أنا من دسوق، وبالطبع أعرف جماجمون
-أول يوم راسلتيني كان الأول من مارس، وكان الدسوقي قد انصرف باكرًا ليحتفل بيوم ميلادك
* احتفاله هذا لم يدم إلا خمس دقائق
-وكان بعد حادثة السرقة بيوم
* نعم
-كيف فاتني هذا؟ كيف؟
* كنت أتوقع أن تكتشف هذا في لحظة.. تكتشف أنني زوجة صديقك
نعم، أنا ميرفت زوجة الدسوقي
أنا تلك الفاتنة التي وكأن جسدها قد نُحِتَ كما أرادت
أنا من ارتدت النقاب حتى لا تفتن كل من يراها، أو تُفتن هي
أنا تلك الجامعية التي بسبب أن أخاها شخص شاذ أو مثلي أو لوطي؛ فلم يتقدم لها أحد..
مَن سيضحي ليصبح هذا خال أبنائه أو خالتهم؟
أخي أضحوكة المدينة كلها، راقصة في كل الأفراح بلا أجر، أحيانًا يأتينا سكرانًا، وأحيانًا أخرى نجده مقيدًا وملقى عاريًا بجوار أكوام الزبالة.

دمر نفسه ودمرني، وأخيرًا.. تقدم لي الدسوقي، قريب والدي، ووافق الجميع على الفور، وتركت أهلي، ومحافظتي، وسمعة أخي السيئة وجئت إلى هنا.. وما أدراك ما هنا!

هُنا الدسوقي..

رجل لا يشغله أيُّ شيء

ولا يفكر في أيِّ شيء

يذهب إلى عمله، ويأتي لينام.. يخرج ليأتي لينام

رجل لا يتكلم إلا في أشياء تافهة، بالنسبة له أنا مجرد مبولة يفرغ فيها مثانته، وأنا أنثى.. تعودت على نظرات الإعجاب والاشتهاء، بداخلي وحش يتضور جوعًا، والرجل بجواري لا يُسمن ولا يغني من جوع..

لم أخنه أبدًا فعليًا، كل ما فعلته هو حسابي على الفيس باسم مروة آدم، وميرفت عندي هي الاسم التركي لمروة، فالواو كانوا ينطقونها "فاء"، فكانوا يقولون: أنت "فلد" عوضًا عن أنت "ولد"، وكانوا يقولون: مدرسات عوضًا عن مدرسة؛ فهكذا أصبحت مروة ميرفت، وبالطبع كلنا لآدم، فها أنا "مروة آدم"؛ وأصبحت معروفة بهذا الاسم.

كان كل شيء يسير كعادته إلى أن جاءت قصة "بيارة" ثم "السرقة" ثم "عمر"..

نعم، أنا ميرفت زوجة صديق عمر شاكر

* * *

* عمر.. دعك من فكرتك الحمقاء تلك
-لماذا؟ لأموت بعدها بأيام دون جدوى؟
* الأعمار بيد الله
-مَن تقنعين؟؟ أقول لك لم يعد أمامي طبيًا إلا أسابيع قليلة
* فلتظل بجواري تلك الأسابيع
-بجوارك كيف؟؟ هل ستخونين زوجك؟ هل سأخون صديقي؟
* لا بالطبع، ولكن فلتدعني أنظر إليك.. في عينيك ولو مرة.. دعني أقف معك هذه المرة بالمدرسة وأنت تعرفني حقًا
-لن أتراجع يا أنا.. وفِّري مجهوداتك ،ووفري كمية الهواء التي بقبري قبل أن أموت مختنقًا
* عمر أرجوك!
-ألا تفهمين..! لقد بدأ السم الذي تناولته في عمله.. حتي لو خرجت فلن يتم إنقاذي، الآن أتكئ على حائط قبري ملتحفًا كفني، وبعد الانتهاء معك سأكسر هاتفي وأدفنه تحتي، وأنتظر حتفي وبجواري تلك العناكب التي تنتظر لتلتهمني هي والديدان، وسيأتون لدفنِ آخر بعد شهور ويجدونني بوضعي هذا، سيتصورون أنني دُفنت حيًا وحاولت فتح قبري ولم أفلح..
ستظل تلك القصة يتداولها العجائز للصغار، لم أعد صفرًا.. لقد تحركتُ للموجب
* يا لتلك الفكرة المجنونة التي تسيطر عليك.. كلنا نموت، وكلنا ينتهي ذِكْرُنا في الدنيا بطريقة أو بأخرى
-وأنا اخترت طريقتي
* عمر ...لا تتركني
-قصص الحب الخالدة لابد أن تنتهي يموت أحدهما

* لا أريد الخلود لقصتنا.. بل أريدك أنت.. لقد تكلمنا سويًا في كل الموضوعات... في كل شيء؛ فلم أجد تلك الراحة النفسية مع أحد غيرك

-أفرغي طاقتك مع أولادك.. أما أنا، فقدْ مِتّ.. عندي في الصفحة صديق اسمه هاني سامي، وهو إمام مسجد، أخبريه أن يصلي عليَّ صلاة الغائب؛ فأنا لم يصلوا عليَّ الجنازة ميتًا بل صلوها حيًا

* عمر.. أرجوك، أتوسل إليك، اخرج من قبرك

-أخبري هاني أنني قد أوصيتك بتلك الوصية، وعندما ستقولين له: بأمارة زوجتك الثانية؛ سيصدقك، فلا أحد يعلم غيري تلك المعلومة

* عمر.. أنا لن أقف هكذا وأنت تقتل نفسك

-وماذا ستفعلين؟

* سأفعل أيّ شيء.. أيّ شيء

-أمامك اختياران لا ثالث لهما.. أن تأتي إلى القبر وتنبشيه لإخراجي، ووقتها لا أعلم بماذا ستخبرين أهل القرية؟ وكيف عرفتِ بأنني ما زلت حيًا!

والخيار الثاني -والذي ستفعلينه- هو أن تصمتي..

تبكينني في صمت، كما فعل عمي عندما همست له بحقيقة مرضي، وبأنني سأسبقه إلى الموت، وهمست له بأنني سأكتب أرضي باسم عمر الصغير.. بكى ولم يستطيع فعل شيء كما تبكين الآن..

* أواه يا قلبي!

-الموت هو المعادلة الوحيدة التي لا أستطيع حلَّها، فعذرًا على رحيلي عنك

* أواه يا عمري!

-لا تحزني يا أنا.. هل رأيتِ الفيديو خاصتي الذي كان لا يعجبك ووصفتيه بالكآبة؟ كل المواقع تطير به.. الرجل الذي صوَّر قبره ثم مات بعدها.. كانت حركة ذكية أخرى مني

*** أنتَ أذكى مَن قابلت**

-لكنكِ هزمتني ولم أكتشف حقيقتك

*** كيف تُسمي فراقك عني انتصارًا؟**

-نعم.. لقد انتصرتِ .. لقد كانت النتيجة النهائية لمباراتنا معًا لصالحك..

حتى وإن كانت (موجب صفر).

الفهرس

الفصل الأول ------------------------------ ٥
الفصل الثاني ---------------------------- ١٠
الفصل الثالث ----------------------------- ١٦
الفصل الرابع ------------------------------ ٢٢
الفصل الخامس ---------------------------- ٢٦
الفصل السادس ---------------------------- ٣٢
الفصل السابع ----------------------------- ٣٧
الفصل الثامن ---------------------------- ٤٢
الفصل التاسع ---------------------------- ٤٨
الفصل العاشر ---------------------------- ٥٤
الفصل الحادي عشر ----------------------- ٥٩
الفصل الثاني عشر ------------------------ ٦٧
الفصل الثالث عشر ------------------------ ٧٤

الفصل الرابع عشر ------------------------ ٧٩
الفصل الخامس عشر -------------------٨٨
الفصل السادس عشر ------------------٩٥
الفصل السابع عشر ------------------- ١٠٠
الفصل الثامن عشر -------------------- ١٠٧
الفصل التاسع عشر ------------------- ١١٦
الفصل العشرون----------------------- ١٢٠
الفصل الحادي والعشرون-------------- ١٢٥
الفهرس -------------------------------- ١٣٢

تم بحمد الله

من إصدارات مؤسسة زحمة كُتَّاب



الشعر والخاطرة :

- **لابس وش : علاء أحمد**
- **فعشقت مجددًا : أحمد لملوم**
- **امرؤ الهلس : إسماعيل علي**
- **إنسان فالصو : محمد الشحات**
- **فأنت تفاح أخضر : عبد الرحمن حميدة**
- **ضل ونور : لمياء عامر**
- **تراتيل عاشقة : شاهندة الزيات**
- **ثورة عاشق لم تكتمل : محمد أبو ذكري**
- **وجع الحنين : هيام الجمل**
- **أبجدية حب : كواعب البراهمي**
- **لك الحب : إيمان زايط**
- **حب في زمن حزين : السيد حسان**
- **فراغ عاطفي : على نمر**
- **ضل ونور : لمياء عامر**
- **هلاليات : عبد الرحمن الهلالي**
- **الشتاء الأخير : آية على الشاعر**
- **مني لك : عبلة موسى، خالد غازي**

- سكتة حب : عبلة موسى
- خلطة مطبعية : إيهاب الكيلاني
- خارج دواير الانتظار : أحمد رامي عبدالله
- ١/٢ كدر : عثمان عبدالمنعم
- لسه! : رفيدا حسن
- كلمات تروي حكايات : محمد العدلي
- خيال يرتب ألفاظه : د. محمد عبدالله الشيخ
- على ضفاف الزمن مررت بذاكرتي : سهير عبدالله رخامية
- ولي أمل : إسلام عبدالعزيز
- تحيا مصر : خالد غازي

الرواية والقصة القصيرة :

- استربتيز : منة الله رأفت
- الصامتون تحت الأرض : هبة حمدي
- المواجهة الملعونة : محمود شاهين
- العذاب الحلو : سالي غانم
- للأحلام اسم آخر لا نعرفه : محمد صلاح المصري
- طائر في الظلام : إيمان عبد الخالق
- هن : ولاء بيومي
- رجل ضد العالم : سمير زكي
- (HIV) من مذكرات مثلي : علاء أحمد
- للخطايا ثمن : محمد الجعفري
- جريمة أب : حازم خليفة

الكتب المجمعة :

- تيليجرام : شعر
- سيلفي : شعر
- سيجا : شعر
- صف تاني : شعر
- قلم رصاص : شعر
- ترابزين : شعر
- بارانويا : شعر
- بيانولا : قصة قصيرة
- ألوان : قصة قصيرة
- نيكتوفيليا : خواطر
- إنسانوبيكيا : شعر وخاطرة وقصة قصيرة

المقال والدراسات :

- مداد في حب الوطن : د.أحمد السعدي
- يا سكر : كريم عمرو، ياسمين التمامي
- كيميا الحب : سارة حسين
- لا مؤاخذة : أحمد مرسي
- مدن مصر المحروسة (حتمية الموضع، إمكانية الزمان) : على محمود العبادي
- شرائع محرمة : كواعب البراهمي

لطلب إصدارات مؤسسة زحمة كُتّاب للثقافة والنشر، زوروا مقرها في : ١٥ شارع السباق، مول المريلاند، مصر الجديدة، أو زوروا موقعها الإليكتروني لمعرفة أماكـن التوزيـــع على مستـوى الجمهـورية، والدول العربية.

للتواصل :

www.za7ma-kotab.com

www.facebook.com/za7ma

www.facebook.com/za7makotab

za7ma-kotab@hotmail.com

٠١٢٠٥١٠٠٥٩٦



زحمة كُتَّاب .. القدرة قرار !